القرن الثالث عشر

1 – محمد بن علي الشوكاني

2 – الشيخ حسن العطار

3 – محمد علي

4 – رفاعة رافع الطهطاوي

5 – جمال الدين الأفغاني

6 – أحمد خان

7 – عبد الرحمن الكواكبي

8 – محمد عبده

1

obeikandl.com

obeikandl.com

هـذا القـرن

يبدأ القرن الثالث عشر الهجري سنة 1786 ، وينتهي سنة 1883 حسب التقـويم الميلادي ، وهو قرن تمت فيه بعض الأحداث والتغيرات والتحـولات في العـالم كلـه بوجه عام ، والعالم العربي ، والعالم الإسلامي بوجه خاص ، كـان مـن أوضـح هـذه الأحداث والتغيرات والتحولات في الجانب الـسياسي ، بـشكل اسـتمر إلى مـا بعـد ذلك على امتداد أكثر من قرن من الزمان .

لقد تفرع العالم العـربي والإسـلامي مـن الناحيـة الـسياسية إلى أربعـة كيانـات دولية، هي : الدولة العثمانية التركية ، ودولة السعديين بمراكش ، واستحدثت دولـة جديدة هي الدولة الفجارية بفارس كبديل للدولة الصفوية ، والدولة الرابعـة التـي أصبح لها وزن دولي هي : الدولة المصرية بقيادة الوالي محمد علي . وخرجت من هـذا التوزيع الدولي الذي تم : الدولة المغولية بالهند بعـد أن انتهـى نفـوذ المغـول عقـب الضعف الذي أصابهم في القرن الماضي ؛ نتيجة للصراعات والانقسامات التي تمـت بين حكامها من ناحية ، ومواصـلة الـشركة الـشرقية الإنجليزيـة في الهنـد مـساعيها وحيلها للقضاء على النفوذ المغولي في الهند ، وبالفعل .. انتهى نفوذ الدولة المغوليـة ، لينتقل إلى الحكومة البريطانية ليبدأ الاستعمار البريطاني للهند من ناحية أخرى .

ومن هنا ، يمكن القول بزوال دولة المغول الإسلامية التي كان يحكمها ملك أو سلطان يدين بالإسلام ؛ لتصبح الهند مجرد مستعمرة بريطانية أكثر من قرن .

ويبقى بعد ذلك التعرف على الحالة السياسية للعالم الإسلامي، وفق هذا التشكيل السياسي الجديد ، ثم الحالة العلمية ، وبعدهما الحالة الدينية ، والاجتماعية .

وفي الجانب الآخر .. نجد أوروبا قد وصلت أوج تقدمها وازدهارها ، حتى صارت وحدها هي المسيطرة على العالم الإسلامي ، توجهه كما تشاء وفق مصالحها، إلى درجة أن انقسم هذا العالم الإسلامي بين دولتين أوروبيتين هما : إنجلترا وفرنسا ، وكأن هذا العالم أصبح إرثا لهاتين الدولتين ، والدول الأوروبية الأخرى التي تشايعهما . وهو ما عرفناه بعد ذلك بالاستعمار الأوروبي للدول العربية والإسلامية. ولعلنا نتبين ذلك في الحديث عن هذه الدول الأربع الجديدة .

بالنسبة للدولة العثمانية التركية : فقد ضعفت ؛ نتيجة الصراعات والانقسامات التي حدثت في القرن الماضي ، إلى درجة أن هذا الضعف جعل أوروبا تفكر في تقسيمها إلى ولايات . ولكنها عدلت عن ذلك ، ورأت أن تستفيد من تماسكها بدلا من هذا التقسيم ، فبدأت كل دولة أوروبية تنتزع ما يمكنها انتزاعه في غفلة من الدول الأخرى . فالدولة العثمانية التركية أصبحت في نظر الأوروبيين مثل الرجل المريض الذي لا يرجى شفاؤه ؛ لأن أعداءه من الأوروبيين يعملون على بقائه مريضا . وإن السبيل إلى ذلك : إثارة الفتن والصراعات بين أبنائها ، حتى فقدت الدولة العثمانية في هذا القرن معظم أملاكها في أوروبا ، كما فقدت الجزائر والمغرب بعد استيلاء فرنسا عليهما ، أعقب ذلك استيلاء فرنسا على تونس ، وأما مصر فقد حاولت فرنسا استعمارها من خلال الحملة الفرنسية التي استمرت ثلاثة أعوام من بعدها أجبرت على الرحيل ، لتبدأ بريطانيا في احتلالها في نهاية هذا القرن بعد هزيمة العرابيين وإخفاق الثورة العرابية .

والدولة الفجارية التي قامت على أنقاض الصفويين بفارس ، فقد كانت تعاني الفساد نفسه الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية التركية ، وكان لدولتي روسيا وإنجلترا أطماع في بلادها ؛ فقامت حروب بينها وبينهما ، كانت تنتهي بانتصار الدولتين الأوروبيتين .

وأما دولة السعديين في مراكش ، فإنها كانت في أسوأ الأحوال ؛ لأن فرنسا فصلت بينها وبقية البلاد المغربية باستيلائها على أجزاء من المغرب ، واستعمار كل من الجزائر وتونس والمغرب بعد ذلك ؛ مما ساعد على ضعف واضمحلال هذه الدولة وزوالها بعد ذلك .

وأما الدولة المصرية بقيادة محمد علي الذي قام بإصلاحات كثيرة ، تمكن بها من إنشاء الدولة الحديثة بكل مفهومها المعروف ، لكن كولاية من ولايات الدولة العثمانية التركية ؛ مما جعل إنجلترا تسعى إلى الدولة العثمانية لتعزله ، أي : محمد علي عن مصر ؛ لأنها رأت فيه معارضة لأطماعها ، إلا أن أهل مصر تمسكوا به ؛ حيث كان أقوى شخصية إسلامية في هذا القرن . لكن إصلاحاته ذهبت بوفاته ؛ حيث لم يحافظ عليها خلفاؤه ، لتبدأ مصر مرحلة جديدة من التأخر والفساد كبقية بلاد العالم الإسلامي الذي يبدو أنه كتب عليه التخلف والتأخر .

وأما عن الحالة العلمية : فقد انحطت مثلما حدث في الحالة السياسية ، خاصة وأن العلم المستخدم كان قديما باليا لا فائدة فيه ولا جدوى منه ، هو باختصار : علم لا يناسب العصر الحديث بكل إنجازاته واختراعاته في كل المجالات . بل بقي العلم في العالم الإسلامي جامدا متخلفا متأخرا ، لا أمل في تقدمه إلا بعد مرور عشرات السنين .

ولا تقل الحالة الدينية سوءا عن الحالة العلمية . وقد بلغ أمر المتصوفة في هذا القرن : أن الحاكم كان يرجع إلى نقيبهم في اتخاذ القرارات السياسية والدينية ، إلى درجة أن منصب شيخ الأزهر كان لا يتم إلا بموافقتهم .

يحدث هذا الفساد والتخلف في العالم الإسلامي ، بينما نجد أوروبا قد بلغت أوج ازدهارها ، وصارت هي وحدها التي تقود العالم وتديره وفق سياساتها ، وكان أظهر دولها في القيام بذلك إنجلترا ثم فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا . إذا ، فموقف

أوروبا في القرن الثالث عشر الهجري يماثل موقف الولايات المتحدة الأمريكية في إدارتها للعالم الآن بالصورة التي تريدها ، ولا مانع إن كانت إرادتها ضد إرادة الشعوب . والغريب أن التقدم العلمي في أوروبا كان يسير جنبا إلى جنب مع التقدم السياسى ، حتى أدى تقدمها العلمي إلى وجود الاختراعات الحديثة مثل : التليفون والفونوغراف .. وغير ذلك من الاختراعات التي تخدم البشرية في سلمها أو في حربها .

وقد استوقف المسلمين هذا التقدم الحادث في أوروبا الذي يقابله تأخر في العالم الإسلامي ، وهنا شعروا بالخطر ، وأنه لابد لهم من تقليد أوروبا في علومها وأنظمتها التي نهضت بها . بل رأوا أن الخطر هو في تقليد أوروبا في هذا الجديد ؛ لأنه يؤدي إلى ضياع الدين والدولة معا، ويصبح العالم الإسلامي مجرد تابع لأوروبا، أو بمعنى آخر أن التجديد الأوروبي خطر على الدولة والدين .

وعلى الرغم من أن الأحوال السياسية والدينية والعلمية ، وتتبعهم الحالة الاجتماعية ، على هذا المستوى الهابط والمتدني ، وأن العالم الإسلامي كان متخلفا متقوقعا ، إلا أنه مع ذلك ظهرت مجموعة من المجددين في هذا القرن يتقدمهم ، محمد علي الشوكاني كرجل دين ، وحسن العطار أحد شيوخ الأزهر الذي كان يجمع بين العلم والدين ، ومحمد علي باشا صاحب النهضة المصرية الحديثة ، ورفاعة رافع الطهطاوي : رائد اليقظة والاستنارة ، وجمال الدين الأفغاني : الثائر الذي نقل الثورة إلى كل الأمة الإسلامية ، وأحمد خان السياسى الذي صنع الكثير لأمته الهندية ، وعبد الرحمن الكواكبي : الثائر السوري صاحب كتاب (أم القرى) ، والشيخ الإمام محمد عبده : رائد الإصلاح والتعليم ؛ حيث أثار هؤلاء بتجديدهم النظر إلى بعض المسائل المحتدمة ، خاصة تلك التي أثيرت بين الحكام وشعوبهم ، محاولين تقديم بعض الحلول لها ، كل حسب قدراته وإمكاناته .

محمد بن علي الشـــوكاني

محمد بن علي الخولاني الشوكاني الزيدي اليمني : من المجددين في القرن الثالث عشر الهجري والذي ولد عام 1172هـ وتوفي عام 1250هـ - من الأسماء التي دوت في أرجاء العالم الإسلامي مؤذنة بيقظة جديدة ، وإحياء لعلم الأمة ولغتها وثقافتها ، واستعادة لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادة لبعثها بعثا جديدا ، دون شعور واضح أو علم مستبين بالذي كان يجري في ديار المسيحية الشمالية (التي هي غير المسيحية الشرقية) من يقظة ونهضة وبعث جديد ، ونصيحة وتنبيه للإنسان العربي . لا تنظر إلى الفرق الهائل الكائن بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة ، والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم ، بل أكثر من ذلك ، فإن اليقظة الأوروبية كانت بعد في أول الطريق ، وتتكئ اتكاء شديدا على ما كان عند العرب من العلم المسطور في الكتب برموزه التي تحتاج إلى استبانة وفهم، وعلى العلم الحي الذي كان عند أهل دار الإسلام ، وكان الفرق بين اليقظتين يومئذ هو : أن يقظة العرب كانت هادئة سليمة الطوية منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضرتها في حدود الإسلام ، وإن كانت قبل ذلك يقظة متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصل ، وشيكة الالتئام . وأما يقظة الأوروبيين فقد كانت متفجرة بحقد كظيم على ما حدث لأوروبا على أيدي صلاح الدين في الحروب الصليبية ، أو محمد الفاتح في القسطنطينية أو ما حدث في الأندلس . فكان الحقد مكظوما ، شيمته السطو الخفي ، وشملها مجتمع

بالضغينة الدفينة المتنامية ، وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والخداع والمكر.

هذا وغيره ، كان يملأ قلب «الشوكاني» ويسترجعه ليل نهار ، فخلع عن نفسه صفة التقليد ، وفتح لنفسه باب الاجتهاد . ألف كتاب : (السيل الجرار على حدائق الأزهار) فلم يقيد نفسه فيه بمذهب الزيدية ، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، واستبعد ما لم يقم عليه دليل ، فثار عليه أهل مذهبه من الزيدية ، وغالبيتهم من المقلدين الجامدين على التعصب لمذهبهم في الأصول والفروع ، فكان يقارعهم بالدليل والحجة من الكتاب والسنة ، وكلما زادوا ثورة عليه ، زاد في تمسكه بمنهجه ، حتى ألف رسالة عنوانها : (القول المفيد في حكم التقليد) ذهب فيها إلى ذم التقليد وتحريمه ؛ فزاد ذلك في تعصبهم عليه ، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت ، فقامت بسبب ذلك فتنة في صنعاء باليمن بين خصومه وأنصاره ، وقد رد عليهم بأنه يقف موقفا واحدا من جميع المذاهب ، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه، والخلاف في المسائل العلمية الظنية مطلوب .

إلا أن ما يؤخذ على الشوكاني في هذا القرن (الثالث عشر الهجري) ما أخذ في القرون السابقة على مدرسة «ابن تيمية» ، حيث تبالغ في التعصب له ، حتى تقع بذلك في تقليده في كل ما ذهب إليه ، ولا يكون هناك فرق بينها ومن يقلد ، وقد حمل هذه المدرسة على الوقوف عند المسائل التي أثارها في الفروع ، يدافعون عنها بما كان يدافع به ، ويرددونه قرنا بعد قرن ، كأنه ليس هناك مسائل غيرها يجب أن تخالف فيها المذاهب المشهورة ، كما خالفها ابن تيمية ولم يعبأ باتفاقهم عليها ، وبلغ من جمود هذه المدرسة أنها تكاد تكون أشد من غيرها على من يحاول في هذا ما حاول ابن تيمية ، ولا شك أن هذا يرجع إلى الجمود في ظواهر النصوص ، وكراهة منهج التأويل فيها ؛ مما أورث هذه المدرسة جمودا في العقائد لم يلبث أن أوقعه في الجمود

obeikandi.com

في الفـروع ، حتى إنهـم (أي : أتبـاع هذه المدرسـة التيمية) يقلدون مذهب « أحمـد ابن حنبل» ، كما يقلد غيرهم مذاهب «أبي حنيفة ومالك والـشافعي» ، ولا يقلـدون ابن تيمية إلا فيما ذهب إليه من إنكار التوسل بغير الله تعالى ، ومن إنكار زيارة القبور للتبرك بأصحابها .

وكان لهذا أثره في الشوكاني ، حين وقف في هذا القرن ذلك الموقف ، ولم يختلف فيه حاله عن حال ابن تيمية في القرن السابع الهجري ، مع أنه قد مضى على ابن تيمية نحو ستة قرون، واستحدثت في هذا القـرن أمـور كتلـك التـي أشرنـا إليهـا في بدايـة الحديث عـن هـذا المجدد ، كما تنبـه لها من المجـددين من تأثر بها ، ولم يغـال في أمـر ابن تيمية كما غالت فيه مدرسته ، من أمثال السيد جمال الدين الأفغـاني وأحمـد خـان الهندي ، وغيرهما من رجال المدرسة الحديثة في الإصلاح ، وهي مدرسـة ترفـع مـن شأن ابن تيمية ، ولكنها لا تغالي في أمره .

وعلى الرغم من تمسكه بآراء ابن تيمية ، إلا أنه أي : الشوكاني مع ذلك ، اعتـبر من المجددين في الإسلام ؛ حيث كان عالما مبرزا قصده الكثيرون للأخذ عنه ، حتـى طار صيته في جميع البلاد ، وانتفع من علمه كثير من الناس مما جعله واحدا ممن كـان على رأس المائة عام . كما يقرر بعض المؤرخين والعلـماء ، ومـنهم العلامـة الراحـل : «محمود محمد شاكر» ، وإشارته إلى ذلك في كتابه : (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) .

* * *

الشيخ حسن العطار

الشيخ حسن العطار : من مجددي القرن الثالث عشر للهجرة، فقد عاش ما بين عام 1180هـ حتى عام 1250هـ ، والذي يوافق القرن الثامن عشر الميلادي . وكما يسجل مؤرخ مصر : « عبد الرحمن الجبرتي » فيما كتب عن هذه الفترة التي كانت تحت الحكم العثماني ، والتي عاشها الشيخ حسن العطار : أن العطار كان من أسرة اشتغل عائلها بالتجارة ، وعلى الأخص : تجارة العطارة ، ولهذا لقب بالعطار ؛ حيث لم تكن تعرف الأرض الزراعية ولا الفلاحة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد أدرك العطار – بوعيه ومشاهداته – نظام ملكية الأرض التي كان قدرها قليلا في يد الفلاحين ، أولئك الذين كانوا مثقلين بالضرائب والإتاوات التي يدفعونها – وقتئذ – للملتزم الذي كان يأخذ القرى التزاما ، ويتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، على أن يلتزم بدفع ضرائبها إلى الحكومة ، ويتولى هو بنفسه جباية المال من الفلاحين، وكان هذا النظام يعرض على الأهالي المقتدرين بطريق المزايدة لمن يدفع له ثمنا أكبر من أصحاب النفوذ والقوة من القادرين على الجباية ، وبعد أن كان هذا الالتزام لمدة معينة ، صار يعطى للملتزمين مدى الحياة على أن ينتقل إلى ورثتهم من بعدهم ، متى دفعوا الإتاوة للحكومة .

هذه الجوانب السلبية عاشها العطار وتأثر لها ، على الرغم من أنه كان بعيدا عنها ؛ حيث عمل أجداده بالتجارة في القاهرة . ولكن كيف لا يتأثر لها ؟ وهي التي استوقفت الرحالة الفرنسي ، فوصفها بقوله : « والفلاحون كانوا آلات مأجورة ، لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم من الموت ، وما يحصدونه من أرز وقمح يذهب إلى موائد السادة ... » .

ولا يقل حال الصناعات عن حال الزراعة في العصر الذي ولد فيه حسن العطار . ويكفي القول : بأن الأتراك أخذوا معهم أمهر وأفضل أصحاب الحرف والصناعات في مصر ؛ ليعملوا في تركيا على تحسين وترقية بل واستحداث صناعات لم يكن يعرفها الأتراك وقتئذ . ولهذا ، ولغيره فقد انحدر هذا الجانب في مصر وتدهور ، يضاف إلى ذلك جانب التجارة ، وما آل إليه من ضرائب وإتاوات ؛ جعلت الكبار من التجار يهربون من القاهرة التي كانت مقرهم ، إلى غيرها من قرى ومدن الأقاليم ، أو الكف تماما عن العمل التجاري الذي لم يعد عليهم بأي ربح أو عائد بعد استنزاف الملتزمين ورجال الحكومة لريعه .

ويضاف إلى ذلك : الخرافات والأوهام والخزعبلات التي اشتهرت في المجتمع المصري ، وليس هذا بغريب على مجتمع مريض ، جاهل ، فقير أن يسلم من هذا التفكير اللاعقلي . ولعل ذلك يجعلنا ننظر إلى الحياة العقلية بوجه عام في هذه الفترة التي عاش فيها الشيخ حسن العطار ؛ حيث لم تكن على غرار ما قبلها بقرنين من التخلف العقلي ، والتأخر الفكري الذي ظهر في البلاد بصورة واضحة ، فلقد ضاعت تلك البقية الباقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التي كانت سائدة في عصر دولتي : المماليك البحرية والشراكسة . وبلغ من سوء حال الأدب في ذلك العصر : أنه لم ينبغ في البلاد شاعر واحد يستحق أن يشار إليه . واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بالشروح والتفاسير والتعليقات والتقارير ، بدلا من الابتكارات . ومن عجائب الأمور في هذا المجال بالذات : أن ما حدث في القرون الثلاثة للاحتلال العثماني: أن اللغة التركية لم تستطع أن تنافس اللغة العربية أو تطردها من أوطانها المحتلة احتلالا عثمانيا ، ولكنها استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربي عن أصحابه ؛ حيث هبطت ملكة التعبير عند الكثير من الأدباء والمؤلفين ، واستحالت الأصالة الفكرية إلى ضحالة ، كما

جمدت القرائح العربية ، ولم يعد إليها ذلك الخصب والنماء والبريق الذي عهدناه في عهود القوة العربية ، وهبط مستوى التأليف المبتكر إلى أسفل درك من الجدل العقيم، والتعليق السقيم . ومن هنا لم يظهر في القرن الثاني عشر ، والذي ظهر في جزء منه «الشيخ حسن العطار» إلا قلة نادرة من أمثال «الزبيدي» صاحب : (تاج العروس).

والواقع .. أنه لولا وجود الأزهر الشريف - على الرغم مما فيه من تخلف وجمود في مواد الدراسة - يقضي تماما على الحياة الفكرية بمصر ؛ فقد كان الشيوخ الذين يتخرجون فيه مبعث ذلك البصيص من النور في البلاد ، وكانت الكتب الأزهرية - على الرغم من عقم مناهجها - مثارا لانشغالات ذهنية ، وإن كانت العلوم العقلية والرياضية والطبيعية قد تم هجرها تماما ، باستثناء قلة قليلة جدا ممن يعرفون العلوم الرياضية .

وكان الشيخ حسن العطار من هذه القلة الأزهرية القليلة جدا ، والتي أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية ؛ حيث كان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية المستخدمة في أوروبا ، وله في ذلك العبارة المأثورة التي يحفظها له تاريخنا العلمي والثقافي ، والتي يقول فيها : «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس بها» ولعل هذه العبارة وغيرها من عبارات وصفحات ترهص إلى هذا التغيير والتجديد ، جعلنا متفقين مع عدد من العلماء والمؤرخين على اعتبار أن هذا الشيخ الأزهري من المجددين في زمانه.

والحق ، أن اتصال الشيخ حسن العطار ببعض علماء الحملة الفرنسية ، قد أفاد عقليته المتحررة ، كما أن اطلاعه على كتبهم وآلاتهم التي حملوها إلى مصر معهم قد أكدت قيمة العلم والتجربة ، وعلى ما يقرره «علي مبارك» في الجزء الرابع من :

الخطط التوفيقية ، من أن الشيخ حسن العطار كـان منبهـرا ممـا وصـلت إليـه الأمـة الفرنسية من المعارف والعلوم ، ومن كثرة كتبهم ، ومن طرق الاستفادة منهـا ، وقـد تمنى لمصر وللعالم العربي أن تصل إلى ما وصلت إليه هذه الأمة الفرنسية .

والآن ، بعد التعرف على الأحوال التي يمر بها زمان الشيخ حسن العطار ، وما قبل زمانه بقليل . هل نحن في حاجة إلى مزيد من التعرف على هذا الشيخ الأزهـري المستنير ؟ لو كان الأمر بالإيجاب ، فلننظر إلى سيرة حياتـه ، فنجـده قـد ولـد – كـما ذكرنا – عام 1180هـ الموافق 1766م بالقاهرة ، وكان أهله من المغـرب ، فـانتقلوا إلى مصر ، وكان أبوه عطارا ؛ ومن هنا جـاءه هـذا اللقـب ؛ لأن اسـم هـذا الأب كـان الشيخ «محمد كتن» ، وكان لهذا الأب ميل شديد إلى بعض من العلوم الطبيعيـة ، إلا أن انصرافه إلى التجارة ، جعله يبتعد عن هذا الميل ، ولذلك نراه عنـدما لاحـظ مـن ابنه «حسن» إقبالا على العلم ساعده على تحصيله ، على الرغم من أنه كـان يحتـاج إلى معاونته في شئونه التجارية ، فكان هذا الابن يتردد عـلى الأزهـر ، ويحـضر حلقـات كبار مشايخه .

وهنا يحدث أمر لم يكن متوقعا هـو : مجـيء الفرنـسيين إلى مـصر عـام 1798م ، وكان عمر الشيخ حسن العطار – وقتئذ – ثمانيـة عـشر عامـا ، فهـرب إلى الـصعيد خوفا على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعـد قليـل ، حينـما اطمـأن ، فاتـصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، حيـث أفـاد مـنهم ، واطلـع عـلى كتـبهم وآلاتهـم وتجاربهم العلمية ، فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم والمناداة بضرورتها ، وقـد اشتغل في الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين ، وهذا ما اعترف به العطار نفسه في رسالة لـه ، يتحـدث فيهـا عـن الكتـب والتجـارب التـي لاحظهـا عنـد هـؤلاء الفرنـسيين قـائلا : « وكلهـا في العلـوم الرياضـية والطبيعيـة والأدبية، وأطلعوني على آلات فلكية وهندسية » ومع ذلك فقـد اشـتغل أثنـاء هـذه

الحملة بالتدريس في الأزهر ، فكان يقرر على طلبته شرح الأزهرية في علم النحو ، حيث يشير إلى ذلك في مقدمة هذه الأزهرية ، ونراه بعد هذا كما يسجل الأستاذ «محمد عبد الغني حسن» في ترجمته له – ولغير ما سبب معروف – يخرج من مصر ، هاربا إلى البلاد الرومية عام 1217هـ ، 1802م مستصحبا كتبه ، كما يشير إلى ما أصاب مصر من الفرنسيين ، ولعل الحوادث التي أعقبت خروج الحملة من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد .

وفي عام 1810م يدخل الشام قادما من بلاد الروم ، فيلتمس من أهل العلم في دمشق قراءة شرح الأزهرية لينتفع بها طالبو العلم ، ويقيم في الشام خمس سنوات ، ثم عاد إلى مصر عام 1815م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاما ، قضاها في التجوال والترحال ؛ حيث كانت الأمور في مصر قد استقرت ، بعد أن صارت ولايتها لمحمد علي ، فعاد العطار إلى التدريس بالأزهر مرة ثانية .

وفي عام 1246هـ الموافق 1830م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر الشريف ، فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل في هذا المنصب ، إلى أن توفي عام 1250هـ الموافق 1835م ، وهو شيخ للأزهر .

وقد عرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة ـ منها : حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة ، كما عرف بأسلوبه الأدبي : نثرا وشعرا ، وعباراته الأنيقة التي كانت تختلف بالطبع عن الأساليب الركيكة لزمانه ، وما قبل زمانه في العصر العثماني ، وله إسهامات عظيمة في الشعر والنثر معا .

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب ؛ فتدل عليه كتبه ورسائله في كيفية العمل بالاسطورلاب ، والربعين : المقنطر والمجيب ، والطب والتشريح ، وأشكال التأسيس في علم الهندسة ، هذا ما كان عليه في إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه .

ولقد امتاز حسن العطار بقراءاته العميقة للكتب العربية والمترجمة في زمانه ، ولم يختص بعلم معين أو بفن من الفنون ، ولكنه كان حريصا على الإفادة من كل علم ، وكان يطرز الكتب التي يقرؤها بهوامش وتعليقات ذكية . وفي ذلك يقول تلميذه : «الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي» : « كان للشيخ حسن العطار مشاركة في كثير من العلوم : كل العلوم حتى الجغرافية ، وله أيضا هوامش وجدتها بأكثر التواريخ ، وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب الأجنبية المترجمة ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف » .

ويبقى في الحديث عن مجددنا في القرن الثالث عشر الشيخ حسن العطار؛ حيث نشير إلى ما أحدثه من حركة إصلاحية داخل الأزهر ، وهي محاولة تعتبر الأولى من نوعها ؛ حيث كان صوته أول الأصوات العربية التي انطلقت من داخل الأزهر منادية بتغيير كتبه وإصلاح برامجه وإدخال العلوم العصرية فيه . صحيح ، لقد سبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربي هو التركي «أحمد باشا كور» الوالي العثماني بمصر ، والذي لاحظ نقص مناهج التعليم في الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والنحو والصرف والمنطق ، ونبذهم لعلوم المقاصد كالعلوم الرياضية ، مع ضرورتها لتقدم الأمم وقوتها . ولا يلام هذا الوالي العثماني على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة على علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضى الفلكي : «الشيخ حسن الجبرتي» - والد مؤرخ مصر الكبير : «عبد الرحمن الجبرتي» - حين تذاكر معه علوم الرياضة ، ويتعلم معه عمليا صنع المزاول . فما كان ينتظر من مثل هذا الوالي التركي أن يفعل للأزهر أكثر من ذلك ، خصوصا أن اهتماماته بالعلوم الرياضية كانت اهتمامات شخصية لم ترق إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين، كما لا يلام «الشيخ عبد الله الشرقاوي» شيخ الجامع الأزهر - وقتئذ - في عهد ولاية هذا الوالي التركي على مصر ، لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلوم العصرية فيه ؛ فإن الجو لم يكن مهيئا في ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ.

ولقد حدث ذلك قبل مولد الشيخ حسن العطار ، حيث كانت تتردد فكرة الإصلاح بين جنبات الأزهر ، ولا شك أن الشيخ حسن العطار قد سمع بذلك ، وتأثر به ، كما أثر فيه اتصاله بالفرنسيين - كما ذكرنا - واطلاعه على كتبهم ومشاهداته لتجاربهم وآلاتهم ومعاملهم وأجهزة أرصادهم .

ومن هنا ، قامت في نفسه المتطلعة إلى إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد كلها . وما أصدق «علي مبارك» وهو يتحدث عن حسن العطار قائلا : « .. واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم ، خاصة من أساليبهم المستعملة في بلادهم ، وفي المقابل ، كان يفيدهم بتعليمهم اللغة العربية ويقول : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . فقد كان يتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة الفرنسية .

وما تحمل عبارة رائد إصلاح من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله هذه العبارة لحسن العطار ؛ حيث كان هذا الرجل أشجع شيوخ زمانه ؛ حين نادى بهذه العبارة التي تعني التغيير والتجديد ، والتي انتبه إليها الوالي «محمد علي» حين كان واليا على مصر ، فسار على ضوء هذه الفكرة فيما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استخدمه من نظام البعثات التعليمية التي أوفدها إلى الخارج ، خاصة : فرنسا وإنجلترا ، وكل هذا كان وفقا لما كان يردده الشيخ حسن العطار من الدعوة إلى التغيير والتجديد .

جانب آخر يضاف إلى إسهامات الشيخ حسن العطار وهو : الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك الوقت كالهندسة والطب والصيدلة والألسن ، تعتبر استجابة حقيقية لدعوة هذا الشيخ المستنير وتطلعاته ، ومناداته بحتمية تغيير الأحوال في البلاد ، والكتب التي ترجمت بالمئات في عصر «محمد علي» تعد صدى حقيقيا لأمنيات الشيخ حسن العطار ؛ حين

رأى كتب الفرنسيين في الرياضة والعلوم والآداب . وإذا كان الطهطاوي صاحب فضل في حركة ترجمة الكتب في عصر «محمد علي» فإنه بلا شك قد تأثر في ذلك بآراء شيخه وأستاذه «حسن العطار» ، وسمع منه الكثير الذي كان منه على سبيل المثال : قوله : « ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته - إن كانت سليمة - في رياض الفهوم » .

والعلوم التي كان يقصدها العطار - وذكرها في (حاشية العطار على شرح جمع الجوامع) - ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التقليدية التي فقد ثقته بها ، وإنما هي علوم الفرنسيين التي اطلع عليها وشاهدها هو والجبرتي الكبير : [والد الجبرتي المؤرخ] - وغيرهما من العلماء إبان الحملة الفرنسية ، ثم واتته الفرصة بأن يؤكد للوالي «محمد علي» ضرورة إرسال البعوث العلمية في طلبها ، ولم يكتف بهذا ، بل أوصى الوالي «محمد علي» بأن يعين لإمامة أعضاء البعثات إلى باريس تلميذه : «رفاعة رافع الطهطاوي» .

ولابد - هنا - من الإشارة إلى أن : طموحات حسن العطار نحو التقدم العلمي والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات ، وإنما كانت توجيهات وتنبيهات ، وفرق كبير بين التنبؤ والتنبيه . فالتنبيه يدل على الإيجابية من صاحبه ، ولم يقصر العطار أن يكون إيجابيا في دعوته ، فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر ، كان يختص بها نفرا من تلاميذه الأثيرين إلى نفسه ، وتفرغ هو ليقرأ لهم كتب التاريخ والجغرافيا والأدب والطبيعيات وغيرها من الكتب التي كانت محظورة في الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما يصادفه في الخطط التوفيقية «لعلي مبارك» في حديثه عن «الطهطاوي» وأستاذه العطار حيث يقول : « وكان له - رحمه الله - منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشترك معه في الاطلاع على الكتب الغربية التي لم تتداولها أيدي الأزهريين » .

obeikandi.com

والذين ينسبون كثيرا من الفضل إلى محمد علي بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوروبا ، ويزعمون له العبقرية في هذا الصنيع ، ينسون فضل الشيخ حسن العطار في توجيه محمد علي إلى هذا السبيل ، فقد كان مقربا منه ، ولا شك أنه سمع منه كثيرا ترديده لنغمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، فالتقط محمد علي بذكائه هذه الفكرة ، وحورها إلى نظام البعثات وترجمة الكتب وغيرها من أفكار جريئة وجديدة ، كان الفضل فيها يرجع إلى الشيخ حسن العطار . ولكن ما العمل والوثائق الرسمية تغفل دائما فضل أصحاب الفضل من غير الحكام والولاة والسلاطين ، وتحجبهم حتى تفسح المجال لظهور هؤلاء الحكام والولاة والسلاطين على حساب أصحاب الفضل الحقيقيين .

* * *

oberkandl.com

محمد علي

يعتبر المؤرخون وعلماء الدين والمفكرون والكتاب الموضوعيون أن «محمد علي» أحد مجددي القرن الثالث عشر الهجري – الذي عاش بين 1183هـ ، 1265هـ – وفي مقدمتهم المؤرخ الكبير : «عبد الرحمن الرافعي والأستاذ عبد المتعال الصعيدي» ، لما لهذا الوالي من إنجازات شاملة أحدثت نهضة عظيمة في مصر ؛ وذلك حين نقلها – كقطر إسلامي – من التخلف إلى نهضة التحضر والتقدم، ولعلنا نقرأ في ذلك ما كتبه مؤرخ مصر الحديثة «عبد الرحمن الرافعي» فيما سجل بمجلده الضخم عن : (عصر محمد علي) .

فلا جدال في أن محمد علي قد سما بأعماله إلى مصاف عظماء الرجال . وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة ، وتدرج من جندي بسيط إلى أن ارتقى عرش مصر، فأسس ملكا عريضا، وغالب دولا كبارا ، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة ، وبعث حضارة زاهرة ، وأنبت ثقافة كان لها الفضل الكبير في نشر لواء العلم والعرفان في وادي النيل .

فالرجل الذي ينشئ كل ذلك ، وكان أميا لم يتلق تعليما عاليا ولا أوليا ، لابد أن يعد بحق من المجددين ، ولولا عظمته وتجديده لما تخطى نشأته الأولى ، وإذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة أقرانه ، ولكن اضطلاعه بالمهمات الكبرى التي أخذها على عاتقه ، وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات ، وبقاء أثره خالدا طوال هذه السنين وإلى ما شاء الله يدل على مبلغ عبقريته .

نعم ، إن العناية الإلهية لاحظته في مختلف أدوار حياته ، وكان لها فضل كبير فيما وصل إليه من عز وسؤدد ، ولكن من من العظماء لم تكن للعناية والأقدار دخل أيما

دخل فيما نالوه من نجاح وتوفيق ؟ ومن من العظماء المجهولين لم يقبر عظمتهم إدبار الحظ وغلبة الأقدار؟ فمع اعتقادنا بما للحظ والعناية الإلهية من الأثر في حياة محمد علي ، لا نشك في أن المواهب التي توافرت لديه كان لها القسط الأكبر في نجاحه وتوفيقه .

وأول تلك المواهب : ذكاؤه الخارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته .

فقد جاء إلى مصر ضابطا صغيرا في الحملة العثمانية التي جردتها تركيا لإخراج الفرنسيين من البلاد ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، فلو كان على ذكاء عادي لانتهى أمره بما انتهى إليه معظم ضباط الجيش التركي ، ولكنه لمح من خلال الأفق ما تتمخض عنه الأمة المصرية من نزوع إلى الحرية ، وما يجيش في صدرها من آمال كبار ، وما تشعر به من سخط على نظام الحكم القديم ، فماشاها في ميولها وسايرها في آمالها ، ورسم لنفسه خطة الوصول إلى عرش مصر من طريق إرادة الشعب ، وهي فكرة مبتكرة بالقياس إلى ذلك العصر ، تدل على ذكاء محمد علي ودهائه وبعد نظره .

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول إلى السلطة بين مختلف الأطماع والمنازع المختلفة ، فلقد كان يعمل لهذا الغرض ، وأمامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الأخرى ، وهما سلطة المماليك : حكام البلد الأقدمين ، وسلطة الوالي التركي الذي كان يمثل حكومة الآستانة ، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا في البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها ، ثم كانت أمامه عقبة أخرى وهي : سلطة الجند الأرناءوط وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية ، فاستطاع محمد علي بدهائه وصبره وذكائه أن يضرب كل سلطة بالأخرى ، وأن يشق لنفسه طريق النجاح والوصول إلى الغاية التي يطمح إليها .

كان «خسرو باشا» (والي مصر سنة 1802) يعمل للتخلص من محمد علي ، فحاربه هذا بالجند ؛ إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتبهم المتأخرة ، وكانت

نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة ، وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ، ولكنه لم يشأ أن يتعجل الوصول إلى السلطة ، بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تتهيأ له الظروف الملائمة التي يستقر له فيها الحكم من غير منازع ، فترك رؤساء الجند ينادون «بطاهر باشا» قائمقام ، ولعله كان يتوقع ألا يطول مقامه في الحكم لما اشتهر عنه من الظلم؛ فثار عليه الأتراك الإنكشارية وقتلوه، وخلا منصب الوالي من جديد ، غير أن محمد علي تريث أيضا ولم يتعجل ، وكان الإنكشارية قد اتفقوا على تعيين «أحمد باشا» واليا على مصر ، فلم يرض بهذا التعيين، وتحالف مع الأمراء المماليك على إقصائه وترك السلطة لهم ؛ وألقى في روع كبيرهم «إبراهيم بك» أنه الأحق بولاية مصر ، وبذلك ضرب الأتراك بالمماليك ، ثم ترك هؤلاء يحتملون أمام الشعب مساوئ الحكم ، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التي أقصتهم عن الحكم .

ويدلك على دهائه وأناته : أنه كان في استطاعته أن يثب إلى الحكم بعد سقوط دولة المماليك ، لكنه آثر الانتظار ، واختار للولاية «خورشيد باشا» ، وبقي هو في صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتودد إلى زعمائه ، فلما ساءت سيرة خورشيد وكثرت مظالمه ثار عليه الشعب ، وهناك طلب الزعماء من محمد علي أن يقبل منصب الولاية، وألحوا عليه في أن يجيب طلبهم ، فقبل ما عرضوه عليه ، وصار الوالي المختار من الشعب .

واستطاع بذكائه وصدق نظره في الأمور وسعة حيلته ، أن يذلل العقبات التي اعترضته في السنوات الأولى من حكمه ، فتغلب على دسائس الأتراك والإنجليز ومساعي المماليك ، كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته ، وخاصة إذا لاحظت أنه إلى ذلك الحين كان أميا ، إذ من المعروف أنه لم يبدأ في تعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين ، وبعد أن تبوأ عرش مصر ، وتخطى العقبات الأولى في حكمه .

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالأناة والحكمة : أنه لما اعتزم إدخال النظام الجديد في الجيش المصري لم يغامر بإنفاذ عزمه ، بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لتنفيذ مشروعه ، ولو أنه استعجل الأمر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود ، ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التي تودي بمراكز الولاة بل توردهم موارد الحتف والهلاك .

والتاريخ يسجل أنه حين عودته من الإسكندرية بعد جلاء الحملة الإنجليزية عن البلاد سنة 1807 كيف ثار الجند في القاهرة وعاثوا في أسواقها فسادا ، وكيف استعمل الحكمة في إخماد ثورتهم . واعتزم من ذلك الحين أن يتخلص من الجيش القديم ، ويحل محله جيش حديث قوامه النظام والطاعة ، ولكنه لم يمض في تحقيق برنامجه إلا حوالي سنة 1819 – 1820 ، وما ذلك إلا لما آنسه من الخطر إذا هو أنفذ مشروعه قبل ذلك الحين ، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لا تصدر إلا عن دهاقين الساسة ذوي الرءوس الكبيرة ، وبهذه الصفات نجح في تأسيس الجيش المصري النظامي . فتأمل كيف انتظر أكثر من اثنتي عشرة سنة قبل أن يبدأ في إنفاذ فكرته ، وكيف أنه عندما بدأ في دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر ، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين في [أسوان] أي في أقاصى الوجه القبلي ؛ لكي يبدأ بمشروعه بعيدا عن الدسائس والفتن التي كانت القاهرة مسرحا لها .

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة ، استطاع محمد علي أن يشق لنفسه طريق النجاح ، وهو من هذه الناحية جدير بأن يعلم ساسة الدول وزعماء الأمم كيف يأخذون الأمور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل .

ومن مواهبه التي ذللت العقبات في طريقه ، وكفلت له الاضطلاع بالمهمات الجسام : الشجاعة وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فهذه الصفات كانت من أكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير .

أما عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر : فلعلنا نذكر حادثة [برواسطة] وكيف امتنع أهلها عن أداء ما عليهم من الضرائب ، فعرض محمد علي على حاكم [قولة] أن يأخذ على عهدته إجبار أهلها على الإذعان ، وسار إليهم في عشرات من الجند ، وكيف استطاع أن يعتقل أعيان المدينة ويسوقهم إلى [قولة] ، وبذلك أذعن أهل [برواسطة] وأدوا ما عليهم من الخراج ، فهذه الحادثة تدلك على ما جبلت عليه نفس محمد علي من الجرأة ، واقتحام الأخطار ، فلقد كان هدفا لأن يذهب ضحية مغامرته في تلك القرية الثائرة . ولا شك أن تلك الشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته ، بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم .

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته في إقدامه على الحروب ومواصلته القتال ، على الرغم مما اعترضه من الهزائم والعقبات ، واحتفاظه برباطة جأشه في أشد الأوقات حرجا ، ولو لم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخص مواهبه لاضطربت نفسه ، وتولاها اليأس أمام المخاطر التي استهدف لها في كثير من المواطن .

ففي حرب الوهابيين استهدفت الحملات التي جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة ، وكانت تجيئه في بعض المواطن أنباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث ، فلم يتزلزل لهذه الأنباء ، بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة ، وكان كلما أخفقت حملة جرد غيرها ، ماضيا في تحقيق غايته . وقد شهد له «الجبرتي»، ولم يكن من مناصريه ، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التي حلت بالجيش المصري في واقعة [الصفراء] فقال عنه : «ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى» .

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية ، لتحققت أنه لولا همة محمد علي وقوة إرادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثماني سنوات متواليات ، حتى وصل بها إلى نهايتها من الظفر بالوهابيين وبسط نفوذ مصر ، وسلطتها على جزيرة العرب .

وتبدو لك أيضا شجاعة محمد علي في إعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها ، فإن محاربة السلطنة العثمانية – وهي وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التي لا ينضب معينها – أمر يحتاج إلى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة ، بل والمجازفة والاستهداف للأخطار ، إذ لو ظفر به السلطان في واقعة من وقائع تلك الحروب الطاحنة ، لكانت دولة محمد علي ، بل حياته عرضة للخطر ، فهذا الإقدام له قيمته في الحكم على شخصيته .

وإذا قال قائل : إن محمد علي إنما حارب تركيا في الوقت الذي بدت عليها فيه أعراض الضعف والهرم ، فماذا نقول عن وقوفه في وجه الدول الأوروبية جمعاء عقب انتصار الجيش المصري في [بيلان وقونية] ، واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته ، فإذا رجعت إلى الخطابات التي وجهها إلى مندوبي الدول واعتراضه على تدخلهم ومصارحتهم بعدم النزول على إرادتهم ، تجلى لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه . ثم ماذا نقول في تحديه الدول الأوروبية في الحرب التركية الثانية ، عقب انتصاره في واقعة [نصيبين] ورفضه الإذعان لقراراتها ، وطرد سفرائها من مصر ؟! كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرع به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب ، وتلك لعمري صفات العبقرية والعظمة .

ومن أخص صفاته التي لازمته طوال حكمه : حبه للعمل وجلده على احتمال أعبائه ، فلم يكن يعرف لنفسه هوادة ، وكان يهتم بدقائق أعمال الحكومة ويراقبها بنفسه ، ولا ينام من الليل إلا قليلا ، وكان يصرف معظم وقته في مراقبة الأعمال والعمال، ويكثر من التجول في الأقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التي يصدرها. وبهذه الوسيلة ، كان يبث روح العمل والنشاط في نفوس الموظفين ، ويشعرهم دائما بأن عينه لا تغفل عن مراقبة أعمالهم ، وغني عن البيان أن هذا يستدعي مثابرة وجلدا على العمل ونشاطا لا يعرف الملل أو الكلل ، وهذا النشاط كان أمرا غير مألوف في ملوك الشرق وأمرائه الذين هم في الغالب أميل إلى الدعة والكسل ، والانصراف إلى

الراحة وترك حبل الأمور على غاربها ، والانكباب على الملاهي والملذات ، فمحمد علي كان فذا بين ملوك الشرق وحكامه ، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الأمور . ولقد كان هذا النشاط موضع إعجاب الإفرنج الذين لم يألفوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو في سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة في السودان ، ويتوغل في أصقاعه النائية مستهدفا للمتاعب والأمراض ، متنقلا من جهة إلى أخرى على أتم ما يكون من النشاط واليقظة ، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم في السن ، يعطينا فكرة عما غرس في نفسه من علو الهمة وحبه للعمل .

ولا يخفى أن حبه للعمل ويقظته في مراقبة موظفي الحكومة كان لهما فضل كبير في تقدم الأداة الحكومية في عهده ، وبعث روح النشاط في فروعها ، بعد أن كانت الحكومة مصابة بالجمود ، أو بما يشبه الشلل في عهد الحكم التركي وحكم المماليك .

تلك هي الصفات والمواهب التي تكونت منها شخصية محمد علي ، وجعلت منه رجلا عظيما . والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها في ولايته الحكم ؛ لأن من العظماء من تتوافر فيهم صفات العظمة ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وأنفسهم ، فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما ، بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث ، ومع ذلك يعدون عظماء ، ولكن محمد علي كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على أيديهم كبرى الفوائد .

فهو من الوجهة السياسية كان يرمي إلى إنشاء دولة مصرية مستقلة ، قوية البأس عظيمة السلطان ، منيعة الجانب ، وهي غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية، ولقد حقق فعلا تلك الغاية ، وجعل من مصر دولة فتية مستقلة تمتد حدودها من [جبال طوروس] شمالا إلى أقاصي السودان جنوبا ، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الأناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر وسورية

وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الأناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر طبقا لمعاهدة [لندرة] فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان وحققت وحدة وادي النيل السياسية والقومية .

وغني عن البيان ، أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهنات الهينات ، ولا ينهض به رجل عادي ، بل يحتاج إلى سياسي كبير من أعظم الرجال همة ودهاء ؛ فإن أي خطأ يبدر منه كان يكفي لإحباط المشروع في خطواته الأولى ، أو هدمه من أساسه بعد تمامه ، ولكن محمد علي أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة ، ويكفيك برهانا على بعد نظره في السياسة ، أنه لما عرض عليه مشروع حفر قناة السويس أعرض عنه ، رغم إلحاح بعض الماليين والسياسيين الإفرنج ، إذ رأى أنه سيؤدي إلى تدخل الدول في شئون مصر ، واتجاه الأطماع إليها وجعلها هدفا للدسائس الاستعمارية ؛ مما يفضى إلى ضياع استقلالها ، ومما يؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد : «إذا أنا فتحت قناة السويس فسأنشئ بوسفورا ثانيا ، والبوسفور سيؤدي إلى ضياع السلطنة العثمانية ، وبفتح قناة السويس تستهدف مصر للأطماع أكثر مما هي الآن ، ويحيق الخطر بالعمل الذي قمت به وبخلفائي من بعدي » .

ولقد حققت الأيام صدق نظره ، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه فلا يغامروا بمستقبل البلاد وينشئوا فيها بسفورا ثانيا أفضى إلى ضياع استقلالها .

إن كفاءة محمد علي كرجل سياسي بعيد النظر ، ظهرت في تأسيس الدولة المصرية المستقلة ، وفي إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل في شئونها ، ومن هنا ، جاءته فكرة المعارضة في فتح قناة السويس ، وتبدو هذه الكفاءة أيضا في كونه مع وفرة أعمال الإصلاح والعمران التي تمت على يده ، لم يحمل مصر دينا لدولة أجنبية ، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مد يد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الأجنبي في شئون البلاد .

obeikandi.com

ومما يذكر له في هذا الصدد ، أن شركة إنجليزية طلبت إليه أن يأذن لها بإجراء إصلاحات مهمة في ميناء السويس تزيد من اتساعها وتجعلها مرفأ كبيرا ، فأبى أن يجيب الطلب ، وكذلك لم يطمئن إلى مد سكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة إنجليزية أخرى ، وبعد أن اتفق وإياها على إنفاذ المشروع عدل عنه ، خوفا من عواقب امتداد النفوذ البريطاني في مصر .

ففضل محمد علي ليس مقصورا على تحقيق استقلال مصر ، بل هو فوق ذلك قد وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال ، ورسم السياسة الحكيمة التي تجعله بمنجاة من المخاطر ، ولو أن خلفاءه حذوا حذوه واتبعوا سياسته ، لما تصدع بناء الاستقلال في عهدهم .

تلك كانت أعمال محمد علي ومقاصده من الجهة السياسية ، أما من الوجهة العمرانية : فقد كان من الرجال ذوي الخطط الواسعة النطاق في الإصلاح ونشر لواء العلم والحضارة في البلاد ، ولا نريد هنا أن نسرد أعماله في هذا الصدد ، فيكفي أن نرجع إلى بقية أعماله لنجده من غير شك : باعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر الحديثة .

ومن هذه الأعمال العظيمة : تأسيس حكومة نظامية ، ولم يكن بمصر ثمة حكومة من قبل ، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى ، لكن محمد علي أوجد حكومة مستقرة ، لها قواعد وأنظمة ودواوين وإدارات ، وسن لها قوانين ولوائح ، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول، ولا شك أن فكرة التنظيم هي ناحية بارزة من نواحي عبقريته ، فهو الذي بث روح النظام في هيئات الحكومة وفروعها ، في الجيش ، والبحرية ، والتعليم ، والشئون الخارجية ، والري ... إلى غير ذلك .

ولكل ذلك ، اعتبر المؤرخون ، ومترجمو سير شخصيات المجددين في الإسلام أن محمد علي واحد من هؤلاء المجددين في العصر الحديث .

* * *

رفاعة رافع الطهطاوي

رفاعة رافع الطهطاوي ، من مجددي القرن الثالث عشر الهجري ، حيث ولد عام 1218هـ ، وتوفي عام 1290هـ ، وتجديده كان في : ريادته للنهضة العربية الإسلامية في جوانب عدة ، منذ أن سافر إلى فرنسا وعاد منها ، وقد سيطرت على عقله فكرة مؤداها : الاستفادة من تقدم الغرب في العلم ، متأثرا بالمبدأ الإسلامي الذي يدعو إلى العلم ولو في الصين . وبالفعل عمل على طلب العلم من الغرب ، هذا العلم الذي لا يعتدي على عقيدتنا ، وإنما يصلح من شأننا.

ففي سيرته : نلمحه شابا نشأ نشأة عادية من أبوين فقيرين كأبناء السواد الأعظم من الشعب ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره . ودخل الأزهر كما دخله غيره من المئات والآلاف ، وصار من علماء الأزهر كما صار الكثيرون أيضا . ولكنه تميز عن أقرانه وتفرد بالسبق عليهم ؛ حيث تسامت شخصيته إلى أعلى المراتب . لماذا ؟ لأنه كان يحمل قلبا جسورا وعقلا متوثبا ، وعزيمة ماضية ، وفكرا مقتحما .

وحتى في اختياره إماما للمبعوثين ، مهمته الوعظ والإرشاد لأفراد البعثة ، نراه تحول إلى إمام لنهضة فكرية حديثة .. لماذا ؟ لأنه لم يكتف بالوظيفة التي سافر من أجلها ، بل نراه يرتحل إلى باريس وعيناه على ثقافتها وعلمها ، ومع أخذه من النهضة الأوروبية بأحسن ما فيها ، احتفظ بشخصيته العربية الإسلامية ، ليعود إلى وطنه كامل الثقافة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، معتزما خدمته بما يرضى عقل العالم وقلب الأديب ، وضمير الوطني المفتون بحب بلده ؛ ليزدان به عصر محمد علي ، وتمتد زعامته إلى عصر إسماعيل .

obeikandi.com

عاش رفاعة في باريس ، ليس كوافد تبهره أضواء الغرب ، كان يـرى ويـسمع، يبحث ويدرس ، يناقش ويسأل ، كان يؤمن بأن الحياة الإنسانية لا تريـد لأعـضائها أن يعيشوا عميا ومعهم أعينهم، أو بكما ومعهم ألسنتهم، أو صما ومعهم آذانهم، كان علامة استفهام دائبة التنقل بين الأشياء حتى يفهمها، وبين الأفكار حتى يستوعبها.

فما الذي كان يهمه من السعي إلى إتقان الفرنسية ؟ غير معرفـة لغـة قـوم حتـى يستفيد من علمهم .

وما الذي كان يعنيه من وراء درس نظام الحكم بفرنـسا ، وترجمـة دسـتورها في كتابه : (تخليص الإبريز) وأن لا يكتفي بذلك بل يعلق على مواد هذا الدستور.. غير ميله الفطري إلى تطبيق مبادئ الحرية والديمقراطية في بلده ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بالصحافة الفرنسية، وقوله عنها: « إن الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية » .. غير أنه كـان يريد لبلده صحافة جديدة يسهم في تأسيسها وتطويرها في (الوقائع المصرية)، أو مجلة (روضة المدارس) ، أو ينشئها من بعد تلاميذه ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بالتعليم فيستحدث منظومة في التربية والتعليم، يصب فيها عصارة علمه وعمله وفلسفته .. غير أنه كان يريد لأمتـه التقـدم، ولـيس من سبيل آخر إلى ذلك غير التعليم ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بإنشاء مدرسة الألسن ، غير أنه كان يريـد مـد الجسور بين لسانه العربي واللسان الأجنبي ؛ حتى تكون أمته على اتصال دائم بالفكر العالمي ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بإصلاح النظام القضائي في عـصر إسـماعيل ، وأن يمهد لذلك بتعريب القوانين الفرنسية ، وهي مهمة شاقة تحتاج إلى اطلاع واسع على هذه القوانين ومعرفة عالية بأحكام الـشريعة الإسـلامية . حتـى يمكنـه اختيـار

المصطلحات المطابقة لهذه الشريعة في هذه القوانين ، غير النهوض بهذا الجانب الحيوي من حياتنا ؟!

ثم ما الذي كان يعنيه من وراء دعوته إلى : تعليم المرأة وتثقيفها أسوة بالرجل ، وأن يخصص لذلك كتابا هو : (المرشد الأمين للبنات والبنين) فيه يقرر وجوب تعليمها ؛ حتى تقوم بواجباتها ، وليكون هو بحق أول من دعا إلى تحرير المرأة ، غير الخروج بهذه المرأة من البؤرة المتخلفة التي عششت فيها قرونا لتسهم مع الرجل في بناء المجتمع ؟!

ما الذي كان يعنيه رفاعة من وراء كل ذلك ، وما تفسيره غير التنوير في كل جوانب حياتنا ؟!

ذلك أن التنوير عند رفاعة كان أملا حلوا تعلق به حتى لبس ثوب الحقيقة ، وخيالا عذبا طاب له أن يسبح فيه حتى اكتسى بكساء الواقع ، وحلما جميلا انشغل به حتى تبدى واضحا جليا في أعمال أبنائه وأحفاده .

مثل التنوير عند ابن صعيد مصر : رفاعة كمثل ثأر قديم من موات حمل الفكر العربي على الرحيل في عنفوان شبابه ، فأرغم آدابه الخالدة على السير في ركاب المتثائبين في عصور الانحطاط ، وأجبر علومه العظيمة على التوقف لتلحق بها وتسبقها فلول المتربصين ، وحول فنونه الرفيعة إلى علب ومواخير بعد أن أضاءت إشعاعاتها ظلام العصور الوسطى .

إن الحديث عن الطهطاوي كرائد للنهضة العربية الإسلامية طويل، وله جوانب عدة ، غير أننا في هذه الصفحات نختار جانب دعوته إلى تحرير المرأة ، مسايرا في ذلك تعاليم الإسلام ، والتي بسببها مع غيرها نعتبره من المجددين في القرن الثالث عشر الهجري ، معتمدين في رصد هذه الدعوة على ما كتبه الدكتور «محمد محمود الدش» فنقرأ ما خلاصته: أن الطهطاوي كان يريد أن تصل دعوته في التربية والتعليم

إلى كل مكان من العالم العربي بحقيقة فكرنا الإسلامي ، الذي يدعو إلى أخذ العلم والاستفادة منه ، حتى ولو كان في الصين ، فكانت دعوته إلى تحرير المرأة العربية أول دعوة في قضية المرأة العربية التي ظلمتها قرون التخلف والظلام ، حتى إنه جعل منها قضية لها أهميتها وخطورتها . ونستطيع أن نلمس ذلك من كتاباته وآثاره ، ومن أهمها في هذا المجال كتاب : (تخليص الإبريز في تلخيص باريس) الذي سجل فيه مشاهداته ودراساته وتجاربه ومقارناته ، إبان رحلته في فرنسا ، فأطلع القارئ العربي لأول مرة على ما يجري في هذه البلاد ومجتمعاتها ومدارسها وجامعاتها ، من : عادات وتقاليد ومناهج وأساليب- وكانت له أثناء ذلك وقفات ، خاصة عن المرأة الغربية ، سجل فيها - منذ وطئت قدماه [مرسيليا] - كل ملاحظاته عنها ، في أسلوب تقريري وعبارات محايدة ، ومقارنة موضوعية بينها والمرأة العربية ، وأحيانا كان يعطي نفسه حق الاستحسان أو الاستهجان هنا وهناك في غير اندفاع أو انفعال .

أما كتابه الثاني الذي يخدم هذه القضية ، فهو : (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيه يسوي في مجال التربية بين البنات والبنين ، ويؤدي إلى هؤلاء وهؤلاء النصائح والوصايا ، ويضرب الأمثال لهم جميعا دون تفرقة ، فيما يجب عليهم أن يتحلوا به وأن يزدانوا من صفات حميدة وخلق قويم . كما يخص الفتاة بوجوب التمسك بالحشمة والحياء ، ولكنه في الوقت نفسه يؤكد فضل المرأة في تربية الأبناء والبنات ، وتنشئتهم على الصلاح والشجاعة والوطنية ، ويضرب في ذلك كله كثيرا من الأمثال، ويروي الطرائف والأخبار من أدب العرب .

كما أن له مقطوعة شعرية في تعليم البنات والبنين ، نشرها في كتاب ثالث هو : (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) .

والأفكار السائدة عند رفاعة في قضية المرأة تقوم أساسا على المساواة بين الذكور والإناث في التربية ، منذ دعا إلى تحرير المرأة من الجهل والضلالة وفتح

المدارس لتعليمها ، بل لعله كان يدعو إلى تقديمها في هذا الميدان على الذكور ، لما لهن من آثار معنوية في تربية الأجيال ورعاية الأسرة ، وقد ذكر ذلك صراحة في كتاب : (المرشد الأمين) ، حيث يشير إلى أن تعلم الأدب حسن في الرجال والنساء جميعا ولكنه في النساء أحسن ، لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية .

فإذا تحررت المرأة من الجهالة بالتعليم ، فقد استطاعت أن تتحرر من البطالة وأضرارها بالخروج إلى العمل، وأن تتحرر من الاحتكار والسجن بالاختلاط والانطلاق، وتكوين الشخصية النسوية وتنميتها ، فتكون زينة المنازل وأنس المجتمعات بثقافتها وأدبها ورقتها ، وتتحرر بذلك من الضرائر وتعدد الزوجات الناجم عن الجهل أو سوء الخلق والأدب ، وتتحرر دون شك من الحجاب .

والذين يرون أن «قاسم أمين» هو أول من دعا إلى تحرير المرأة تحررا كاملا فتملك حرية السعي والاختلاط ، وحرية الانكشاف ورفع الحجاب في حدود الشرع ، يختصرون التاريخ اختصارا مخلا ، فيه ضن وابتسار .

وإذا أردنا أن نرد الحقوق إلى أصحابها ، والأصول إلى أربابها ، فلنتأمل آثار «رفاعة الطهطاوي» وخاصة ما كتبه عن المرأة الغربية دون أن نغفل حساب الزمن في آثار الصيحة الرفاعية والدعوة القاسمية ، وظروف كل منهما .

سبقت الصيحة الرفاعية الدعوة القاسمية بنصف قرن من الزمان لا أقل من ذلك ، ونصف قرن في تلك الظروف شيء ليس هينا ؛ لأن هذه الصيحة كما يقولون كانت في واد ، حين لا حياة لمن تنادي .

ونلمح في أفكار رفاعة للوهلة الأولى إعجابه الصريح بالمرأة الغربية ، وفي كثير من الأمور يثني عليها ثناء طيبا فضلا عن عجبه وإعجابه ، وهو مع ذلك ينكر عليها ما يتنافى مع الدين الحنيف والأخلاق العامة .

فهو يعجب بسفور المرأة الفرنسية : «كشف الوجه والرأس والنحر واليـدين» ، ولكنه ينكر على الباريسية ، خاصة تبرجها الزائد وخلاعة ملبسها .

ويلاحظ أن «جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم في القرى منـه في مدينـة بـاريس، وأن نساء الأرياف أقل تزينا ، كما هي العادة المطردة في سائر بلاد العمران » .

ومن الطريف : أن يذكر رفاعة أن بعض القاهريات يلبـسن عـلى أيامـه الـشعر المستعار (الباروكة) .

كما يعجبه أن تشارك المرأة الرجل في ميدان العمل ، في التجارة وغيرها ، ولكنه لا يرضى بأن يكون الرجال «عبيد النساء وتحت أمرهن» .

وينكر أشد الإنكار ما رآه من فجور الزوجات في العائلات الصغيرة والكبيرة ، بينما المرأة في الطبقة المتوسطة متعففة نقية الذيل . وعنده أن المرأة إذا كانت مدللة عند الإفرنج، فإنها كأمتعة البيوت في بلاد الشرق، ولا يرضيه ألا يغار الرجل على امرأته، وهو الصعيدي الذي يفهم أن القتل من وسائل الغيرة على النساء وعفتهن .

وكان أشد ما أعجبه وأثلج صدره أن : « للنساء هناك تآليف عظيمـة ، ومـنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها » ، وأن المرأة هنـاك تقـوم بعقلهـا وقريحتهـا وفهمهـا ومعرفتها ، ومن أجل ذلك لا يكتمل الأنس ولا تحلو الجلسة إلا بهـا . وهـي «التـي تحيي الضيوف أصالة ، وزوجها يحيـيهم بالتبعـة » «فـالمرأة لهـا احترامهـا وجلالهـا ، والأنثى دائما في المجالس معظمة أكثر من الرجل بثقافتها واطلاعها ورقتهـا وظهـور شخصيتها » .

وينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن الشاب رفاعة ، الذي سـافر إمامـا دينيـا للبعثـة في باريس ، لم يتغير سلوكه ، ولم تتبدل أخلاقه ، وله في ذلك شهادات قوية ، وإنما الذي تغير هو عقله ومنهجه في التفكير ، تبعا لاتساع ثقافته وازدياد تجاربه وتأملاته .

ومن العسير .. أن نعقد مقارنة سليمة بين صيحة رفاعة ودعوة قاسم في قضية المرأة لاعتبارات كثيرة ، ونحن نؤكد ذلك ؛ لأن الظروف بطبيعتها الفكرية والاجتماعية كانت تحول دون أن تصبح صيحته قضية كاملة أو دعوة شاملة ، فالسنوات الخمسون، أو تزيد، حدثت في غضون أحداث كبيرة في البلاد، في جوانب مختلفة من تأريخ حياتها ، لا نشك في أن صيحات رفاعة وتلاميذه كان لها أكبر الأثر في حدوثها .

ونستطيع أن نجمل على عجل هذه الأحداث ؛ فهي : سرعة دوران المطابع على الكتب والصحف ، وإنشاء المدارس بأنواعها للبنين والبنات ، وكثرة العائدين من البعثات بالخارج في أقطار مختلفة ، وتزايد عدد الخريجين والمتعلمين من المدارس الوطنية ، وازدياد الشعور الوطني والقومي وارتفاع حرارته ، وظهور أول مجلس لشورى النواب ، ولمعان زمرة كبيرة من الزعماء والخطباء والكتاب في السياسة والوطنية والاجتماع ، وتجمع المستنيرين من الوطنيين في اتحادات وجمعيات وندوات. كل ذلك كان تمهيدا طيبا للطريق الذي اختطه قاسم أمين لدعوته في قضية المرأة ، وجعلها دعوة واسعة كبيرة .

وفي الوقت الذي كان يقف فيه رفاعة الطهطاوي ، وهو يكاد يكون وحيدا ، حينما رفض الطلب المقدم سنة 1836 بفتح مدارس لتعليم البنات ، نرى أن قاسما كانت تحيط به كوكبة من جلة الدعاة الكبار ، والمؤمنين بحرية المرأة ، من أمثال : «محمد عبده ، وسعد زغلول ، وفتحي زغلول ، ولطفي السيد ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، وخليل مطران» . وزاد الدعوة حرارة ، وأكسبها حيوية ونشاطا في صراعها : أنه كان هناك معارضون من أمثال : «محمد فريد وجدي ، وطلعت حرب، ومحمد رشيد رضا» ، على تفاوت في المعارضة واختلاف في أسلوبها وفي عناصرها.

ونستطيع أن نشير أيضا إلى : أن الفترة التي حكم فيها «عباس الأول وسعيد» ، وخنقت أثناءها النهضة التعليمية التي رادها رفاعة ، وراعى بادرتها كانت من العقبات الكبرى التي اعترضت طريق قضية المرأة ، وحالت دون اتصال السير فيها، ولكن رفاعة بعد انتهاء هذه الفترة (1849 - 1863) عاد إلى العمل بخطى كبيرة وعزم شديد ، ومعه نفر في مقدمتهم : «علي مبارك» ، في سبيل تحرير المرأة من قضبان الجهل وأسوار الظلام .

أحسب أن الطهطاوي كان يفهم قضية المرأة وإعطاءها حرية التعليم وحرية السفور وحرية العمل على أنها وحدة متكاملة الجوانب ، بلا تفصيل أو تفريع ، وإنما الذي دعا إلى كثرة التفصيلات والتفريعات هو ذلك الحوار الطويل والجدل العنيف الذي ثار أيام قاسم أمين . وأما الشيخ رفاعة فقد رأى أن مجرد إخراجها من وراء قضبان الحريم ، وتعهدها بالتعليم والتهذيب في المدارس أسوة بالبنين ، كفيل بحل المشكلة من أساسها حلا صحيحا كريما يصحح الأوضاع الاجتماعية الضاربة في الأرض بجذور عميقة ، ويكسب المرأة حرية الحركة والانطلاق .

وحسب رفاعة في هذا المجال أنه دعا قرنا وثلثا إلى تربية الفتاة وتعليمها ، وكافح في هذه السبل كفاحا مجيدا ، في وقت عز فيه تعليم البنين والرجال ، وندر تعليم الصبيان والفتيان ، فأوجد بدعوته من أجل المرأة ثورة جريئة جليلة ، وكفاه فخرا أنه : أول من نبه الأذهان وحرك الأبصار والبصائر بصيحته القوية المجلجلة ، وطرقاته العنيفة الملحة ، التي أفاقت المجتمع العربي من نوم عميق ، وإقامته مذعورا من سباته الطويل ، وقدم بعد ذلك للأجيال الناهضة مدرسة تضم نخبة من التلاميذ الذين ملأوا العصر من بعده ، فتشعبت فروع شجرته الظليلة في الإصلاح على أيديهم ، وحملوا نبراس دعوته ومشعل أفكاره ، وأفكارهم في التربية والتعليم وإحياء التراث المجيد ، ونقل العلوم الحديثة ، وصقل اللغة وتنميتها وإغنائها عن

طريق الصحيفة والكتاب والمدرسة ، فأضاءوا الطريق للبنين والبنات ، بل «للبنات والبنين» .

وأحسب أن الرجل الكبير قد مضى حين مضى عن الدنيا 29 مايو 1873 ، رضى النفس قرير العين ، بهذه المدرسة الفكرية القوية بطريقتها ومنهجها ووسائلها في النقل والنشر ، وبما تركه من ثروة عقلية وفكرية في كتبه الكثيرة التي ألفها وترجمها في العلوم والآداب ، وبهذه المجلة الفنية : (روضة المدارس) التي كانت أغنى صحف عصره ، بما فتحت من صدرها ، للكتاب من علماء وأدباء ومعلمين ومعلمات ، وما كان يخلو من أعدادها من موضوع أو موضوعات تتناول قضية المرأة أو قضية الأسرة أو قضية المجتمع في جرأة وصراحة ، بل ثورة في التناول والتعبير والتطوير .

ولهذا ولغيره ، يعتبر رفاعة رافع الطهطاوي واحدا من المجددين في الإسلام ؛ بسبب ما أوجده في مجتمعه المصري ، بل والمجتمعات العربية من نهضة ويقظة حديثة.

* * *

جمال الدين الأفغاني

السيد جمال الدين الأفغاني من مجددي القرن الثالث عشر الهجري ، حيث ولد عام 1254هـ في بلده [أسعد أباد] إحدى القرى التابعة لأعمال مدينة [كابل] عاصمة أفغانستان ، وكان والده «السيد صفدر» من سادات كنر الحسينية ، حيث يرتقي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ، كما يتصل هذا النسب بالإمام الترمذي المحدث المشهور ، ومن ارتقاء نسبه إلى الحسين رضي الله عنه جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني .

وكما يسجل المؤرخ الكبير «عبد الرحمن الرافعي» في التعريف به ، فيذكر أنه كان لأسرة جمال الدين الأفغاني منزلة عالية في بلاد الأفغان ، أولا لنسبها الشريف ، وثانيا لمقامها الاجتماعي والسياسى ؛ إذ كانت لهذه الأسرة السيادة والإمارة على جزء كبير من بلاد الأفغان ، تستقل فيه بالحكم ، إلى أن انتزعت منهم هذه الإمارة بفعل أمير الأفغان وقتئذ: «دوست محمد خان» ، فأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أقاربه إلى العاصمة كابل ، وقد كان في الثامنة من عمره . فعني والده بتربيته وتعليمه على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء في بلاده ، وقد وضحت عليه منذ صباه سمات الذكاء ، وقوة الفطرة ، وتوقد القريحة ، فتعلم اللغة العربية مع غيرها ، وتلقى علوم الدين والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضيات، حتى استوى حظه من هذه العلوم ، على أيدي أساتذة وعلماء زمانه ، على الطريقة الإسلامية المشهورة وقتئذ .

واستكمل الغاية من دروسه ، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، ثم سافر إلى الهند ، وأقام سنة وبضعة شهور ، فيها كان يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، حيث كانت الهند مستعمرة إنجليزية . فاتسعت مداركه ؛ إذ كان بطبعه

obeikandi.com

ميالا إلى الأسفار والرحلات ، واستطلاع أحوال الأمم والشعوب والجماعات ، وقد أفادته هذه الخصال بعد ذلك في تكوين عقليته السياسية التي اشتهر بها .

وفي واحدة من أسفاره ، قام بتأدية فريضة الحج ، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة متنقلا في بلاد الحجاز وما يجاورها من البلاد العربية ؛ حتى يتعرف على أحوال هذه البلاد وعادات وتقاليد بل وهموم وآلام شعوبها .

ويعود إلى بلاده الأفغان ، وينتظم في خدمة الدولة في عهد أميرها «دوست محمد خان» ، ويكون أول عمل له هو مرافقته في حملة حربية جددها وأعدها لفتح [هراة] إحدى مدن الأفغان ، وطبيعي أن تكون هذه البداية في عمله لها أثر كبير في حياته بعد ذلك ؛ إذ تعود صاحبها الشجاعة ، واقتحام المخاطر . ومن هنا ، تبدو صفة من صفاته العالية التي امتاز بها وهي : الشجاعة في الفعل والقول ، لأن من يخوض غمار المعارك والحروب تألف نفسه الجرأة والإقدام ، خاصة إذا كان مفطورا على ذلك .

وعلى هذا النحو ، كانت سمات شخصية الأفغاني ، فبدأ جهاده ولم يكن هذا الجهاد مقتصرا على بلاده ، وإنما امتد كذلك إلى أقطار الأمة الإسلامية والأمة العربية؛ حتى أصبحت هذه الأمم مدينة بنهضتها السياسية والفكرية والعلمية يعود الفضل بهذا إلى هذا المجدد : جمال الدين الأفغاني .

لقد ظل الشرق الإسلامي رازحا تحت نير الجمود الفكري ، والتأخر العلمي والاستعباد السياسي ، وبقي في سبات عميق ، إلى أن قيض الله له هذا الرجل ، فنفخ فيه اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تفكر وتستيقظ ، وبالأمم والشعوب أن تتطلع إلى الحرية والاستقلال ، فكانت رسالته إلى هذا الشرق مبعث نهضته الحديثة ؛ ولذلك ، فقد وصفه المؤرخون والكتاب – ممن تناولوا سيرة حياته – بباعث نهضة الشرق الإسلامي .

إن رسالة جمال الدين الأفغاني تتلخص في : أنه كان في حياته مصلحا دينيا ، وفيلسوفا حكيما ، وزعيما سياسيا ، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية ، واضطلع بها معا ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد الشبيهة برسالة «مارتن لوثر» للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته وترجع به إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التي تسببت في تأخر أتباعه .

ومن الناحية الفكرية : أدى المهمة التي قام بها في أوروبا فلاسفة الفكر من أمثال «جان جاك روسو» ، و«مونتسكيو» ... وغيرهما ، فعمل على تنوير البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد . وفي هذا الجانب بالذات نجده يختلف اختلافا واضحا عن المجدد الذي تأثر به وهو «ابن تيمية» . فلم يقع في مجال تأثيره الكامل مثلما حدث «للشوكاني» كما رأينا في فصل سابق من هذا الكتاب .

ومن الناحية السياسية : برز الأفغاني بروزا لم يتحقق كثيرا لواحد من مجددي الإسلام ، فقد استنهض الهمم ، واستثار النفوس، وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف الأقطار الإسلامية، وقام بمثل العمل الذي اضطلع به زعماء النهضات السياسية الحديثة في الغرب من أمثال «واشنطن، وجاريبالدي، ومازيني»... وغيرهم.

وهكذا ، نرى أن الذي يجمع بين هذه المهام الجليلة التي جمعها الأفغاني ، ويضطلع بها معا ، في وقت اشتدت ظلمة العالم الإسلامي وجهالته، وتفرقت كلمته، وعز فيه النصر ، وتشعبت الأهواء .. وغير ذلك . فهو خليق بأن يتسامى في قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية والخلود ، ويكون بحق هو من بين مجددي الإسلام في القرن الثالث عشر للهجرة . وظل على هذا الحال حتى وفاته عام 1314هـ .

* * *

أحمـــد خـــان

أحمد خان : من مجددي القرن الثالث عشر حيث عاش في الفترة بين 1233هـ ، 1316هـ، واشتهر بأنه مصلح تربوي إلى جانب كونه مصلحا سياسيا واجتماعيا، وكان يلقب في كثير من الأحيان بلقب «السير» أي : السيد في أسرة مسلمة قديمة من وجوه الأشراف ، حيث قدم أجداده القدامى من فارس وأفغانستان ، واستقروا في الهند إبان حكم شاه جهان (1628م– 1666م) وأصبحوا وثيقى الصلة ببلاطه: وكانت أمه امرأة راجحة العقل ، أحسنت تعليمه ، ولكن ما تلقاه في المدرسة لم يكن يزيد عما يدرس في أي مكتب . فلما توفي أبوه : «مير متقي» سنة 1838م ، أبطلت الإيرادات المخصصة للمناصب الوهمية في البلاط، فاضطر أحمد خان إلى السعى في طلب الرزق، فدخل في خدمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية بالهند ، وحملته الظروف على أن يقنع بوظيفة كتابية صغيرة في محكمة العدل [بدلهى] : على أنه سرعان ما تمت مكافأته على نشاطه وإحساسه بالواجب ، فرقي إلى وظيفة «منصف» أي : (نائب قاض) .

ومن آثاره الأولى في التأليف : ست رسائل دينية تقوم في معظمها على الدفاع عن مذهب أهل السنة ، وأهم من ذلك : ما نشره في هذه المدة من دراسات تاريخية وأثرية ، وأشهرها كتاب عن : العمائر القديمة والآثار في دلهى وضواحيها عنوانه : (آثار الصناديد) (سنة 1847م) ، وقد ذاع صيت «أحمد خان» بفضل ترجمة كتابه هذا إلى الفرنسية سنة 1861 على يد «كاراسان دي تاسى» وانتخب أحمد خان بعد ذلك بثلاث سنوات عضوا شرفيا بالجمعية الآسيوية الملكية بلندن .

وقد كانت الثورة الهندية المعروفة باسم : «العصيان» (سنة 1857م) هي التي أحدثت في حياته ونظرته التغيير الحاسم الثاني ، ذلك أن نهايتها التعيسة ، وخاصة

بالنسبة للمسلمين الهنود ، هي التي جعلته يستقر على العمل في سبيل مستقبل أبناء وطنه ، وذلك بأن يبذل في المقام الأول الجهود الجادة للتوفيق بين البريطانيين والهنود المسلمين ، الذين كان الإنجليز يعدونهم : عماد العصيان وليس الهندوس : وقد أثبت أحمد ولاءه لحكومته بتدخله الشخصى الذي أنقذ به الجالية الأوروبية في [بجنور] ، وكتب رسالتين في ذلك لتهدئة الخواطر الثائرة ، وألقى فيهما اللوم على الطرفين ، فعنده أن العصيان نشأ من إساءة فهم الشعب الهندي للحكم البريطاني ، وجهل الحكومة بظروف المحكومين .

وقد سما أحمد وارتفع فوق الصخب السياسى ، وسعى إلى الارتفاع بأمته متوسلا بالوسائل الروحية المقتبسة من طريقة الأوروبيين في الحياة أيام القرن التاسع عشر الميلادي .

ففي زيارة لإنجلترا (1869م – 1870م) ، تأثر أحمد تأثرا كبيرا بالمستوى الحضاري الذي بلغه الإنجليز ، فلما عاد إلى الهند بدأ يصدر دورية اسمها (تهذيب الأخلاق) بغية تهذيب أخلاق الجمهور بالتخلص من أهوائه . وكان العمل الثاني الذي حققه ، وهو أروع من الأول ، إنشاءه في سنة 1878 كلية إسلامية إنجليزية شرقية في [عليكرة] على غرار جامعتي : أوكسفورد وكامبردج الإنجليزيتين .

وثالث عمل حققه هو إنشاء : (مؤتمر التعليم الإسلامي) سنة 1886م ، وكان هذا المؤتمر يعقد اجتماعات سنوية في مدن شتى ، ويتيح فرص تبادل الأفكار ونشر الآراء الإصلاحية .

وأحس أحمد خان أن صبغ البلاد بالصبغة العربية يقتضى إعادة النظر في الأفكار الدينية ، وقد احتج في ذلك بقوله في خطبة ألقاها في [لاهور] سنة 1884م : «إننا اليوم ، كما كنا من قبل [عندما اتصل الإسلام اتصالا وثيقا بعالم الأفكار اليونانية] محتاجون إلى علم كلام حديث ، نتوسل به إما إلى دحض مبادئ العلوم الحديثة أو التوهين من أسسها، وإما إلى تبيان أنها تتفق مع أحكام العقيدة الإسلامية»:

على أن الرأي الأخير غلب على أحمد في تفسيره الجديد للإسلام ، حتى أحس الناس بأنه يخدش السمة الخاصة التي يتميز بها هذا الدين ، على الرغم من نواياه المخلصة لمقاومة النزعة العلمانية . وكان الركن الذي يأخذ به في مذهبه في علم الكلام هو مبدأ : «إن فعل الله مطابق لكلمته ، أي القرآن» .

ولقد كان لذلك رد فعل عنيف في محيط العلماء ، فانهالوا عليه باللوم ناعتين إياه بالـ «نجري» أي : (الذي يأخذ بمذهب الدهرية في صورته الأوردية) . وهاجموه بشدة، ولكن دأبه وصلابته وعمله المنزه عن الغرض في سبيل رفعة دينه تغلبا في النهاية على المعارضة . وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي أو نحوها ، أصبح أحمد زعيم قومه بلا منازع ، ويتبين ذلك من النصيحة التي أبداها للمسلمين سنة 1887 بألا يشتركوا في المؤتمر القومي ، وأخذت الأغلبية بما أشار به .

وأدى أحمد خان خدمات جليلة لمواطنيه في ميدان الإصلاح الاجتماعي والتعليمي ، ثم إننا يجب ألا نهمل ما كان له من شأن كمصلح ديني : وتعود آراؤه المحددة إلى الظهور بانتظام في كتابات الجيل التالي في صورة مخففة ، على أن أعظم ما أداه أحمد من خير لوطنه هو : أنه رد لمسلمي عصره اليائسين الثقة في أنفسهم . ويعد أحمد ، من هذه الناحية - وليس من ناحية الاشتراكية التي ألصقت به - هو المبشر لدولة باكستان الإسلامية ، تلك التي أنشئت بعد ذلك على أساس من أفكاره . ورجل يكون هو الأساس في تكوين دولة إسلامية لابد أن يكون في طليعة المجددين في القرن الذي يعيش فيه .

ولهذا ولغيره من جهود ، اعتبر أحمد خان من المجددين في الإسلام إبان القرن الثالث عشر ، شأنه شأن معاصره : جمال الدين الأفغاني .

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

نحن على موعد مع فكر الرحالة (كاف) أو عبد الرحمن الكواكبي.. أحد مجددي القرن الثالث عشر حيث ولد عام 1271هـ وتوفي عام 1320هـ . ابن [حلب] الشهباء المدينة السورية العريقة، الكواكبي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، لنمض لحظات في ضيافة هذا المفكر ضيوفا مباركين.

صحيح أن الدراسات المعاصرة قد اهتمت بالكتابة عن هذا المفكر ، فركزت أغلب اهتمامها على آرائه التي وردت في كتابيه الشهيرين : (أم القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) دون أن تدرس عصر الكواكبي . ولهذا ، فقد عنيت الدراسات التالية عن هذا المفكر ، وفي مقدمتها كتاب عبد الرحمن الكواكبي أو الرحالة كاف لعملاق الفكر العربي « عباس محمود العقاد » والأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي التي حققها وقدم لها بدراسة الدكتور «محمد عمارة» . فقدمت الكواكبي كمفكر استبق عصره بأفكاره ، وأضاف إلى الفكر الإسلامي الكثير من الجوانب التي جلت بعض صفحاته .

مثلا : عن أصل الإيمان بوجود الله ، يذكر الكواكبي في كتابه : (أم القرى) قائلا: « إن أصل الإيمان بوجود الصانع الحكيم القدير أمر فطري في البشر ، وأن هذا الأمر لا يحتاجون فيه إلى الرسل ، وإنما حاجتهم إلى الرسل هي في الاهتداء إلى كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه ... » .

ويؤكد الكواكبي قوله على صفحات : (أم القرى) بقوله : « وهؤلاء قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وجاهلية العرب ، واليهود والنصارى ، ومجوس فارس ، ووثنيو

obeikandl.com

الهند والصين وزنوج إفريقيا ، وسائر البشر . كلهم كانوا وما زالوا أهل فطرة دينية، يعرفون الله ، وليس فيهم ما يذكره كليا كما قال عز وجل : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ** ﴾[1] .

ويستطرد في وجهة نظره هذه فيقول : « ومن تتبع تواريخ الأمم الغابرة وأفكار الأمم الحاضرة ، لا يستريب فيما قررناه من أن آفة البشر الشرك بالله ، وكفى بالقرآن الكريم برهانا فقد قال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ﴾[2] .

وبناء على ذلك ، جلت حكمة الله أن يبعث الرسل ، ينقذون الناس من ضلالة الشرك ، وينتشلونهم من وهدة شره في الحياة الدنيا والآخرة ، ويهدونهم إلى رأس الحكمة أي : معرفة الله حق معرفته .

وإذا ما انتقلنا في رحاب فكر الكواكبي إلى كتابه الآخر : (طبائع الاستبداد) تطالعنا فكرة جديدة ، فاقرأ له مثلا : « لقد تضافرت آراء أكثر المحررين السياسيين من الإفرنج على أن الاستبداد السياسي ، متولد من الاستبداد الديني . والبعض القليل منهم يقول : « إن لم يكن هناك توليد ، فلا شك أنهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان » .

وحين يرد الكواكبي على الفريقين يقول عنهم : « إنهم مخطئون في نظرهم إلى الإسلام، وإلى القرآن على وجه الخصوص، ولعلهم يغدرون إذا قالوا: نحن لا ندرك دقائق القرآن نظرا لخفائها علينا ، في طي إشاراته وبلاغته ، وإنما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين » .

---

(1) الإسراء : 44 .

(2) لقمان : 25 .

وعلى هؤلاء وهؤلاء ، يرد الكواكبي قائلا في كتابه : (طبائع الاستبداد) قائلا: «جاء الإسلام بالحكمة والعزم ، هادما للشرك ، ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية بأسس التوحيد ، وأظهر الموجود حكومة الخلفاء الراشدين ، التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر ؛ فهؤلاء الخلفاء الراشدون قد فهموا معنى القرآن ، وعملوا به واتخذوه إماما ، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى فيما بينهم أنفسهم ، وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها ، وأحدثوا في المسلمين أخوة وروابط هيئة اجتماعية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة » .

ويختم الكواكبي قوله : « القرآن مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد ، وإحياء العدل والتساوي في كل آياته » .

ولزيادة التعرف على المواقف التجديدية للكواكبي ، نقرأ معا عرضا لكتابه : (أم القرى) . وعلى الرغم من أن شهرة المفكر الإسلامي الجليل عبد الرحمن الكواكبي ترجع إلى كتابه الأشهر : (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . كما يذهب الكثيرون من المؤرخين والنقاد والدارسين ، إلا أن أصالته الفكرية ترجع إلى كتابه الخالد : (أم القرى) كما يذهب الكثيرون أيضا ، وفي مقدمتهم أستاذنا الراحل الدكتور «أحمد أمين» في كتابه : (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) والكاتب المعاصر الدكتور «محمد عمارة» في كتابه : (الأعمال الكاملة) لعبد الرحمن الكواكبي .

وجملة ما يذهب إليه أنصار الرأي الثاني هو : أن كتاب (أم القرى) أهم عمل فكري قدمه عبد الرحمن الكواكبي ، وأنه ليس أسبق في التأليف من كتابه : (طبائع الاستبداد) فحسب ، بل إنه أوسع تفكيرا وأعمق أسلوبا ، فقد تناول الكواكبي في (أم القرى) الكثير من مشكلات العالم الإسلامي بوجه عام، ومشكلات العالم العربي

بوجه خاص منبها إلى الداء ، ومشيرا إلى الدواء . بمنهج علمي غاية في البساطة والوضوح وبعد النظر ، كذلك تبدو إمكانية هذا المفكر في معرفته الموسوعية بتيارات الفكر الإسلامي المختلفة ، وكيف استطاع أن جعل لكل تيار من يمثله ، حين تقمص أدوار من يمثلون هذه التيارات من الشخصيات الإسلامية والعربية . والأكثر ، قام بعقد العديد من المقارنات بين هذه التيارات حين يتبين منها القارئ أن ما يقرره تيار الصوفية غير الذي يقرره تيار الشيعة ، غير الوهابية أو الزيدية أو الشافعية . وهكذا يتعرض لملامح هذه التيارات من خلال حوار بين أطراف يمثلونها .. اجتمعوا في جمعية سرية أقامت مؤتمرا مكانه «أم القرى» [مكة المكرمة] ، بل الأكثر من ذلك ، فإن ما جاء في كتاب أم القرى ، ينهض دليلا على أصالة وعروبة فكر الكواكبي في كتابه الأشهر : (طبائع الاستبداد) الذي قيل عنه إنه متأثر فيه ببعض الكتابات الأجنبية ، استنادا إلى ما جاء في افتتاحيته حيث يذكر أنه نشر مادة كتاب : (طبائع الاستبداد) في صورة أبحاث قائلا : « منها ما درسته ، ومنها ما اقتبسته » . أو بما أشار إليه الكواكبي نفسه في الفصل الأخير من كتابه وعنوانه : «الاستبداد والتخلص منه» حيث نبه إلى أساليب هذا التخلص مذكرا القارئ برأي «الفياري» - يقصد : الفيري فيتريو - المشهور بكتاباته في مثل هذا المجال .

ولهذا ، نذهب مع الرأي القائل بأن كتاب «أم القرى» أهم ما كتبه الكواكبي. وأنه يصلح دليلا مؤكدا على أصالة وعروبة فهم وفكر الكواكبي ، في كل ما كتب وقدم من كتب ومنها كتابه : (طبائع الاستبداد) .

والآن ، هل نحن في حاجة إلى الاقتراب من شخصية الكواكبي قبل الإشارة إلى كتابه : (أم القرى) ؟ لعل ملامح هذه الشخصية تبدو من موقف هذا المفكر من بعض القوى الاجتماعية في عصره، فمثلا: موقفه من استبداد السلطان «عبد الحميد» المتربع على عرشه في قصر [يلدز] نستشعره من قوله : «الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، وأكبر هولا من الحريق ، وأعظم تخريبا من السيل ، وأذل للنفوس من

السؤال والحاجة .. إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هـاتف الـسماء ينـادي : القـضاء القضاء » .

كذلك نستشعر موقفه من الخديو «عباس حلمي» حيـث يقـول : « .. والعقـل والتاريخ والعيان كلها تشهد بأن المعين الأول للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمـة ، ثم من دونه لؤما ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات » .

وموقفه من الأغنيـاء الحـانين هامـاتهم للظلـم : « ومـن طبـائع الاسـتبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا ، وأوتاره عملا ، فهم رباط المـستبد ، يـذلهم فيهنئـون ، ولهـذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب » .

وموقفه من مفكري الأمة وموجهيها ممن جنحوا إلى النفاق والرياء : « وإذا كان كبار الأمة قد ألفوا النفاق والرياء مرضاة للمستبد الكبير ، فعامة النـاس سـيألفونها أيضا حتى يضطر أكثر الناس إلى إباحة الكـذب والخـداع والنفـاق والتـذلل وإماتـة النفس ، وحتى يصبح من القيم المعترف بها : اعتبار التصاغر أدبا ، والتـذلل لطفـا ، والتملق فصاحة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعا ، والرضـا بـالظلم طاعة ، والإقدام تهوسا ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحـة ، وحـب الـوطن جنونـا .. » وعـن المـضللين في الـدين وفي مقـدمتهم : «أبـو الهـدي الصيادي» المدبر الأكبر لمؤامرات السلطان عبد الحميد يقول : «والواقـع أن الحكـام وبطانتهم من العلماء المضللين قد أفسدوا الأديان ، واستخدموها لتحقيق مطـامعهم وأهوائهم .. » .

تبقى الإشارة إلى كتاب : (أم القرى) الذي سـلك فيـه مـسلك «أفلاطـون» في محاوراته ، فتخيل جمعية سرية عقدت مؤتمرا لها في مكة «أم القرى» وضم هذا المـؤتمر 23 مفكرا يمثلون أمم الإسلام وبعض أقليات العالم الإسلامي . ونـاقش المـؤتمرون

داء الأمة الإسلامية ، فلم يجدوا شيئا غير الركود المتفشى في أرجائها ، ومن المحاورات التي تضمنتها جلسات اجتماعات المؤتمرين كان كتاب : (أم القرى) الذي طبع دون أن يوضع عليه اسم الكواكبي ؛ بل اكتفى فقط بوضع اسمه الحركي «السيد الفراتي» . ووصل المؤتمرون إلى أن تأخر المسلمين يعود إلى ثلاثة جوانب رئيسية تتركز في : السياسة والدين والأخلاق . إذا أراد المسلمون تقدما فليصلحوها حيث يقول في مقدمته : « .. وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سببا ، فلابد لهذا الخلل - يقصد الخلل الذي عم أمة الإسلام - الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرية ، غير سر القدر الخفي عن البشر ، فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك ، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية» .

إن كل ما جاء في كتاب : (أم القرى) كان منبها للكثير من العلل التي ابتلي بها العالم الإسلامي ، مشيرا إلى طرق الإصلاح . وهو المنهج نفسه الذي رأيناه في كتابه: (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . الذي صدر بعد كتاب أم القرى ، والكتابان يجتمعان في فكرتهما على القول بتجديد عبد الرحمن الكواكبي .

* * *

الإمام محمد عبده

في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فقد ولد عام 1266هـ وتوفي عام 1323هـ. انتقلت زعامة فكر الشرق العربي ، إلى الشيخ محمد عبده ؛ فقد كان مصلحا دينيا ، إلى جانب كونه فيلسوفا اجتماعيا . فهو مصلح ديني يتصل إصلاحه بالتفكير ، كما يتصل بالعمل ، وهو فيلسوف اجتماعي حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له أن يراه .

ولأن تفكير الشيخ الإمام محمد عبده كان مزيجا من الإصلاح والفلسفة ، فقد شهد بزعامته للفكر العربي الكثيرون من المفكرين العرب ، وفي مقدمتهم عملاق الفكر العربي «عباس محمود العقاد» حيث يقول : «محمد عبده أول من فك عقال الحرية الفكرية في مصر ، وإننا مدينون له بحرية التفكير وحرية الكتابة» ، ومن المفكرين الأجانب الكثيرون ، وفي مقدمتهم الدكتور «شارلز آدمز» حين يقول : «إن الجهود التي بذلها محمد عبده في سبيل تحرير العقول في مصر والتوفيق بين الدين الإسلامي ، وبين ما وصلت إليه المدنية الحديثة ، سهلت على الفكر العربي في عصرنا الحاضر سبل التجديد دون أن تنفصم الروابط بين الحاضر والماضي . وليس من شك في أن الجيل الحديث من الكتاب المسلمين يدينون بهذا الفضل للشيخ الإمام » .

وهذه الشهادة ، أو التي قبلها ، أو حتى عشرات الشهادات لا تضيف جديدا إلى معنى الزعامة الفكرية للشيخ الإمام ، بقدر ما تضيف من معان يحسها ويدركها كل باحث أو كل دارس للفكر الإسلامي أو الفكر الاجتماعي في عصرنا الحديث.

obeikandi.com

وفي هذا الإطار أو المزيج بين التفكير الديني ، والتفكير الاجتماعي ، نستطيع التعرف على الفكرة الإسلامية عند الشيخ الإمام محمد عبده . فالإسلام عنده دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما **الدعوة الأولى** : فلم يعول فيها الشيخ الإمام إلا على تنبيه العقل البشري ، وتوجيهه إلى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه من النظام والترتيب ، وتعاقب الأسباب والمسببات ؛ ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا .

فالإسلام في هذه الدعوة كما يقرر الإمام محمد عبده لا يعتمد على شيء سوى على الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نطاقه النظري . ويخاطب الإمام محمد عبده العقل بالقول : « إن الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالله من كلا م الرسول ولا من الكتب المنزلة ، ما لم يسبق ذلك الإيمان بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتابا وأن يرسل رسولا » .

ويؤكد الإمام محمد عبده وجهة نظره هذه بالقول : «إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به ، هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ينتقل منه إلى تحصين الإيمان بالرسل ، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .. » .

وأما الدعوة الثانية التي يقوم عليها الإسلام في رأي الشيخ الإمام محمد عبده ، فهي التي يحتج فيها الإسلام بخارق للعادة : التصديق برسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا الخارق للعادة، المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن الكريم وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ، وليس من اختراع البشر ، هو : أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم

الكتابة ، ولم يمارس العلم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا الضال ، مقوما للمعوج، كاملا بنظام عام للحياة ، وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ، ولجئوا إلى غير ذلك بالسيوف وسفك الدماء ، واضطهاد المؤمنين به .

هذا الكتاب المبين الذي نزل على سيدنا رسول الله – ﷺ – وكان معجزة للتصديق برسالته ، كان أيضا في رأي الشيخ محمد عبده جامعة من العقل والعلم معا.

وقد أجمل الشيخ محمد عبده رسالته في الإصلاح الديني، وهو ما يمكن اعتباره تجديدا في الفكر الإسلامي حين قال : «ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : **الأول** : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع إلى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . **والأمر الثاني** : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في المخاطبات الرسمية أو في المراسلات بين الناس .

وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب : **النوع الأول** ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات (ما هو) رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم ، لا في صورته ولا في مادته . **والنوع الثاني** ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون في الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئا في الذوق بعيدا عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعا في عمى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ؛ وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه وذلك : التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال مدة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل . جهرنا بهذا القول ، والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له ؛ أي عبيد ..

« ولم أكن في كل ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ؛ لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان » .

وهكذا ، بين الأستاذ الإمام جوهر رسالته التي قامت على ثلاثة أمور هي : إصلاح الدين ، وإصلاح اللغة والأدب ، وإصلاح السياسة .

وعلى ضوء ما أجمله الشيخ الإمام محمد عبده في رسالته ، رأى مؤرخوه أن الدعامة الأولى لإصلاح الدين هي: إصلاح الأزهر الشريف . وهو ، وإن لم يصل في ذلك إلى ما يريد، فقد اتخذ إلى جانب ذلك وسيلة لإصلاح العقيدة هي تفسير القرآن الكريم ، فقد فسر القرآن في أكثر من مسجد ، فسره في مسجدين ببيروت ، وفي أحد مساجد القاهرة . ودرسه في الأزهر وهو قاض ، ثم وهو مفت ، وحاضر في الجزائر

مفسرا سورة العصر ، وفسر جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ونشر دروسه في التفسير بمجلة (المنار) ، ليقرأه المسلمون قاطبة . ويمتاز تفسير الأستاذ الإمام بأنه عملي يشرح الواقع ويبين سببه ، وبأنه أخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الإسلام التي هي منبع السعادة في كل العصور ، وبأنه روحاني يسمو بالنفس إلى العالم العلوي ، وينزه الله عما شاب العقيدة من شرك : كالتشفع بأهل القبور والأولياء . فمبادئ الشيخ الإمام تشبه إلى حد كبير تعاليم محمد بن عبد الوهاب في الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، إلى جانب أنه كان في تفسيره يحيي العواطف ، ويحرك المشاعر ، أكثر من الاستقصاء في بحث المسائل العلمية العقلية متأثرا في ذلك بطبيعة الدين نفسه . وقد استمر في تدريس التفسير في الأزهر الشريف نحو ست سنوات ، وحضره كثير من علية القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر والمدارس العالية ، وقد أثر الدرس فيهم تأثيرا كبيرا .

لقد تنبه المسلمون بفضل دعوة الإمام محمد عبده ، وشعروا بكيانهم وهبوا من رقدتهم ، وحكموا العقل كما حكموا الدين ، وعرفوا أن باب التجديد لم يغلق ولن يغلق أبدا ، وقد سرت دعوة الإمام الإصلاحية وأفكاره التجديدية في عروق المجتمع المصري وآتت أكلها في كل مجال ، وهي وإن خبت حينا فلم تلبث إلا أن تشتعل نورا يضيء السبيل أمام كل عقل مستنير وفكر حر .

كذلك ، كان للشيخ الإمام محمد عبده رأي واضح في الجانب الديني يسجله الدكتور «عثمان أمين» في دراسته عنه ، هذا الرأي يذهب إلى « أن المسلمين زيفوا تعاليم الإسلام السمحة الواضحة ، وكان يندد بما درج عليه العلماء من «شكلية» قطعية تنبئ عن وسوسة ارتيابية ؛ إذ تجعلهم يسرفون فيفترضون – آليا – أبعد ضروب الاحتمالات ، ويلاحظون – من الخارج – أدق تفاصيل العبادات » .

أما عقائد العامة : فكان الإمام يرى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب ، فهي عند الجمهور عود إلى العقائد الجبرية ، والذهاب إلى أنه لا حرية ولا اختيار للإنسان

obeikandl.com

فيما يفعل ، وإنما هو مجبر فيما يصدر عنه جبرا محضا ، ولهذا ، لا يؤاخذ على ترك الفرائض واقتراف المعاصي !

وقد وجه هذا المفكر المصلح أعنف هجوم على البدع المذمومة التي كانت منتشرة بين المسلمين في عصره . وقد كتب إبان نفيه في بيروت : « أن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا ، نراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الحال إلى مساعدة الدولة ، والإنفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأمم » .

أما في الجانب الاجتماعي للحياة الإسلامية ، فإن الشيخ الإمام محمد عبده يوجه اللوم إلى رجال الفكر في عصره؛ لأنهم لم يقدموا على أي محاولة لإصلاح مجتمع هم أعلم الناس بما يشوبه من عيوب . وكان يدعو الأغنياء إلى بذل المال مساهمة في المشروعات العامة ، ويهيب بالأفراد أن يتضامنوا فيما يعود بالخير على الجماعة .

وإذا كان الشيخ الإمام محمد عبده قد لخص رسالة حياته- كما رأينا- في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد ، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، فقد لاحظ أن أكثر الناس قد أساءوا فهم المعنى المقصود من الطاعة للسلطة الحاكمة ، فألقوا كل شأن من شئونهم على عاتق الحكومة ، معتقدين أنهم غير ملزمين بأن يعاونوا من جانبهم إلا بدفع الضرائب التي تفرض عليهم ، أما الحكام فلم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الناس لأهوائهم وإذلال الأفراد لسلطانهم ، وجمع الثروة وابتزاز المال ، لإنفاقه في إرضاء شهواتهم ، لا يرعون في ذلك عدلا ولا قانونا ، فكانوا أسوأ مثل يقتدي به الشعب !

obeikandl.com

ولعلنا نجول مع جوانب من فكر الشيخ الإمام، فنجده قد ناصر نظرية «حرية الإرادة» مناصرة متصلة لم تنقطع. وكثيرا ما نهض محتجا على «الجبريين» القائلين بأننا لا نستطيع أن نغير شيئا مما كتب علينا في لوح القضاء المحتوم، ولذلك فلا فائدة من العمل والسعي، ومن الخير أن نسلم أمورنا إلى المقادير، تصرفها دون أن نفرض على أنفسنا جهودا مقضيا عليها بالضياع! ويرد الإمام عليهم بقوله: «إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن مثل هذا لمن سخف الرأي، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين»! ويمضي الفيلسوف في دفاعه عن الحرية وحملته على «الجبر» فيقول: «إن جزءا من أعمالنا منسوب إلى الإرادة، وذلك ما يسمى «بالكسب» وهو مناط الثواب والعقاب». وأن المنكرين لحرية الأفعال الإنسانية يحتجون بالآية القرآنية: ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾(1) ويفسرونها على معنى: أن الله هو خالق أعمال الإنسان، لكن الشيخ الإمام محمد عبده لاحظ أن هذه الآية نفسها تقول «.. وما تعملون»: فهي بذلك تفيد نسبة العمل إلى الإنسان.

ولكنهم قد يزعمون أننا إذا حرصنا على إثبات الحرية الإنسانية للإنسان، فقد رفعنا إرادته إلى مرتبة الإرادة الإلهية، وهذا يؤدي إلى «الشرك» بالله، لكن «محمد عبده» يدفع ذلك الاعتراض الأخير على وجه لا يخلو من طرافة، فيبين أن الإنسان الذي يقترف إثم «الشرك» ليس هو الإنسان الذي يعول على قواه الخاصة، ويعد نفسه مسيطرا على أهوائها، مسئولا عن تصرفاتها، بل المشرك هو ذلك الذي يعتقد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الطبيعية الظاهرة، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة الناس، ثم إن «المشرك هو من يعظم غير الله مستعينا به فيما لا يقدر الإنسان عليه: كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش،

(1) الصافات: 96.

والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله » .

على أن «التوكل» الصحيح لا يعني شيئا آخر سوى الثقة بالله ، مع استعمال الأسباب الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا : « فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طريق الوصول إلى المقصود » .

إن عقيدة «القضاء والقدر» إذا فهمت على الوجه السليم ، وخلصت من شناعة القول بالجبر ، لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثر حميد : تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة ، واحتمال المكاره ، واقتحام الأهوال ، وتبث فيها روح التضحية، وتطبعها على السخاء والثبات ، وبذل ما هو عزيز في سبيل الفكر والعقيدة « والذي يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق ، وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟ » .

إن العودة إلى مناصرة عقيدة الحرية هي إذا ، سبيل النجاة للأمة الإسلامية ، والانصراف عن الاعتقاد بالجبر معناه : إيقاظ القوى الأخلاقية ، والتمسك بالعزة القومية ، والحرص على كرامة الإنسان .

وللشيخ الإمام رأي في سياسة الحكم ، خاصة وأن العصر الذي عاش فيه كان مليئا بالأحداث ، مثيرا للخواطر ، فلم يكف المفكر الواعي عن إبداء رأيه في المشكلات العصرية الكبرى ، من سياسية واجتماعية . وقد ناصر محمد عبده – في البداية – النظام الديمقراطي البرلماني . غير أن تتابع الأحداث السياسية في مصر ، وبلاد الشرق العربي ، لم يكن من شأنه : أن يمكن للشيخ الإمام من البقاء على آرائه

obeikandl.com

الأولى ؛ فإن مساوئ الحكومات ، وجهل الشعب ، والفوضى العقلية ، والانحطاط الأخلاقي الذي ساد البلاد عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وانهيار سياسة «جمال الدين الأفغاني» لتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار . كل هذه التجارب جعلت المفكر الوطني يرى في الأفق البعيد نموذجا آخر للحكم أكثر ملاءمة لحال البلاد ، وأدنى إلى تحقيق آماله في إصلاح أمرها .

ومنذ ذلك الحين ، اتجهت آراء الشيخ الإمام بالتدريج نحو نظام خاص من «الحكم العادل» ، يخلص البلاد من تلك المساوئ ، ويحقق لها ما تبغيه من نهضة شاملة ، وللإمام في هذا الموضوع كلمة مأثورة هي : «لن ينهض بالشرق إلا حاكم مطلق عادل» .

ومجمل رأي الإمام في هذا الصدد : أن هذا الإصلاح الأخلاقي يجب أن يسبق الإصلاح السياسي ، بل قد يغني عنه ، فكانت وسيلته إلى الإصلاح السياسي هي «التربية القومية» ، وإعداد جيل قادر على القيام بما يعهد إليه من بعث الروح في المجتمع العربي، ولكن بعثا كهذا لا يمكن أن يتم- في رأيه - إلا على يد حاكم قوي ، نزيه ، عادل ، شجاع ، عالم ، حازم ، أصيل الرأي .

وكان يرى أنه ينبغي الشروع في تطهير واسع ، يتناول أهل النفوس الضعيفة ، ومحترفي السياسة والنهازين ، والمتخاذلين ، والمهرجين والديماجوجيين ، فيقصيهم عن مناصب الحكومة ذات المسئولية ؛ فيفسح المجال لأهل الإرادة القوية ، والتصميم الحازم ، والضمير الحي .

وكان يرى أن تمثيل الشعب في المجالس النيابية ، على النمط المعروف في البلاد الغربية ، ليس له معنى ، إلا إذا اجتمعت كلمة الأمة على غاية واحدة ، وإلا إذا بذل المواطنون جهودهم في سبيل المصلحة العامة .

obeikandl.com

وما دامت الأمة متفرقة ممزقة الأوصال ، مشتتة الأهواء ، وما دامت أحزابها السياسية خاضعة في تصرفاتها لمآربها الشخصية ، وما دام أفراد الطوائف المختلفة يعوزهم الوعي العام ، فالتمثيل النيابي حديث خرافة ساقه الوهم والتقليد .

وفسر محمد عبده أصل الجماعة الإنسانية وطبيعتها ، فميز في ذلك ثلاثة مبادئ أساسية :

أولها : الغريزة الاجتماعية التي تحدث عنها «أرسطو» في كتاب : (السياسة) وهي الغريزة التي تدفع الناس إلى العيش مجتمعين ، وفيلسوفنا العربي على وفاق مع أرسطو في أن الدولة ليست موجودة بالعرف والمواضعة فقط ، وإنما لها جذورها في الطبيعة البشرية .

وثانيها : مقارنة الجماعة بالبدن الحي ، وهي مقارنة شائعة في الكتابات الفلسفية الكلاسيكية .

وثالثها : طابع «الفطرية» في الدين الذي هو لازم للأخلاق وحفظ المجتمع .

جاء في القرآن الكريم : ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾[1] ومعنى هذا عند محمد عبده : « أن الله خلق الناس أمة واحدة ، أي : مرتبطا بعضهم ببعض في المعاش ، لا يسهل على أفرادهم أن يعيشوا في هذه الحياة إلا مجتمعين ، يعاون بعضهم بعضا ، ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض ، فكل واحد يعيش ويحيا بشيء من عمله . لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن كل الوفاء بما يحتاج إليه ، فلابد من انضمام قوى الآخرين على قوته ، فيستعين بهم في بعض شأنه ، كما يستعينون به في بعض شأنهم ، فالإنسان يحس بفطرته أنه محتاج إلى غيره من الأفراد الذين يعيشون في جماعته » .

(1) البقرة : 213 .

والتعاون – فيما يرى الشيخ الإمام – هو الأساس الذي يقوم عليه التماسك الاجتماعي بين الأفراد. وقد دأب الفيلسوف المصلح ، حتى في تفسيره للقرآن الكريم، على التنديد بما يلاحظ عند أكثر أفراد الجماعات من الأنانية أو عدم اللامبالاة ، وهي حالة لابد أن تؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية بين الناس ، وتؤدي بالمجتمع نفسه إلى البوار ، وهو يهيب بكل فرد أن يشعر بأنه جزء من كل ، وأنه عضو عامل في المجتمع الإنساني الكبير ، ويستحث النفوس على الاتحاد والوفاق ، وذلك ببذر بذور تربية أخلاقية جديدة ، هي أبقى أثرا من القوانين التي تفرضها الحكومات ، فإن «الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الأخلاق الفاضلة بمراتبها » ، وبغير الاتحاد والمحبة لا تقوم للأخلاق قائمة . فيجب أن تكون التربية الجديدة تربية اجتماعية مستنيرة، أساسها الإيثار ومحبة الغير : « فالعلم الحقيقي هو الذي يعلم الإنسان من هو ومن معه ، فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة ، هي ما يسمونه بالاتحاد » . لكن هذه التربية الاجتماعية يجب أن تبدأ بالأسرة .

وقد عرف الشيخ الإمام من تجاربه في القضاء وبالمحاكم المصرية أن نحو ثلاثة أرباع القضايا إنما هي بين بعض الأقارب وبعض ، وهذه المنازعات ناشئة عن التباغض ، وحب الوقيعة والنكاية بأفراد الأسرة الواحدة ، وهي مشاعر راجعة إلى نقص التعليم والتربية الاجتماعية. « فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم ، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية : هل يمكننا أننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات ، نبحث عن الروابط الخارجية للجامعة الكبرى ؟ » .

والجماعة الإنسانية إذا سارت على سجيتها ، مع توجيهها إلى الخير ، رسخت فيها الفضائل الاجتماعية التي من شأنها أن تقوي في نفوس الناس الشعور بوحدتهم في الأصل والنوع والمصير ، وتبعث فيهم روح الوفاق والتراحم والسلام . بل إن

الشيخ الإمام كتب في (العروة الوثقى) سنة 1884 بأن الفضائل في عالم الإنسان «كالجذبة العامة» (الجاذبية) في العالم الكبير ، فهي تمسك المجتمع وتصونه من البوار.

فكما أن الجاذبية يحفظ بها نظام الكواكب السيارة ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسب بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها – كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الإنساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله » .

ولم يكن الشيخ الإمام محمد عبده أحد كبار أئمة الإسلام فحسب ، بل كان أيضا فيلسوفا بأسمى معاني الكلمة وأصدقها ، وضع لهداية العمل مذهبا خصبا ضافيا ، واتخذ من أغلب المسائل الفلسفية موقفا لا تعوزه الأصالة ولا الاستقلال . وكان له – فوق هذا مزاج الفيلسوف الحق الذي يميل في كل ما يعرض له ، إلى التأمل والروية ، وينحي عن ذهنه طغيان الآراء المألوفة المشهورة ، ولا يستسلم لحكم الأمر الواقع ، الذي يذعن له فاترو الهمم أكثر مما ينبغي ، بل كان يسلك الطريق الفلسفي على الأصالة ، ذلك الطريق الأفلاطوني القديم ، الذي جدده «ديكارت» وأعاد بناءه «كانط» ونعني به تغليب «الجواني» على «البراني» ، والنظر إلى الإنسان بعين الروح ، وإخضاع العالم لشرعة العقل .

والشيخ الإمام محمد عبده عصري جدا في فلسفته ، وإنه لشديد القرب منا ، متى راعينا الاتجاهات العامة لفكره ، وسيادة الشعور الأخلاقي على مذهبه .

فإذا استثنينا «الغزالي» ، لم نكد نجد من بين فلاسفة الإسلام أحدا قبل الشيخ الإمام أوتي استعدادا نفسيا كهذا : فبدلا من تلك الثقة المطلقة في قوة العقل (وهي

ثقة تتجلى في كتابات الفارابي وابن سينا وابن رشد) ، نجد عند الشيخ الإمام محمد عبده موقفا إنسانيا معتدلا ، فهو لا يغترف من الجدل والمنطق إلا بقدر محدود ، لأنه كان يرى مع «بسكال» أن «روح الرياضة» لا تكفي وحدها ، ولا غنى لنا عن «روح اللطافة» .

وهكذا .. كان تفكير الشيخ الإمام محمد عبده ، الذي جعله في طليعة المجددين في القرن الثالث عشر الهجري .

* * *

obeikandl.com